لون مثالي للغرق

الكتاب: لون مثالي للموت
المؤلف: ضحى صلاح
تصميم الغلاف: آية أشرف
تدقيق لغوي: عاشور عطا
رقم الإيداع: 2019/26833
الترقيم الدولي: 978-977-778-90-9

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

ضحى صلاح

لون مثالي للغرق

رواية

إهداء

إلى باسم الخشن.

لأنك تجعل مني كاتبة أفضل، وحبيبة أفضل..

إلى وجودك الذي يجعل العالم مكانًا أكثر احتمالًا..

ويجعلني أكثر تَحَمُّلًا..

أهديك هذه الرواية التي لم تكن لتكتمل بتلك الطريقة دونك....

شكر خاص

إلى "جهاد" ورسائلها غير المنتهية، شكرًا لقراءتك جميع مسوداتي بالشغف ذاته، ويقينك بأنيس عندما شككت بها.

إلى "إسراء" و"يمنى".. الداعمتين في أشد الأوقات سوءًا، والمتواجدتين لأجلي دائمًا.

إلى فاطمة التي يجاورني ظلها حتى وهي بآخر العالم.

وأخيرًا إلى "إيهاب" و"هبة"، شكرًا لكما، لصبركما، ولكل الدعم والمحبة التي تغرقوني بها.

باهت كطبق من السباغيتي

- 1 -

صباح اليوم نبتت بقعة صغيرة خضراء في وجهي، ولم أعرف ماذا أفعل حيالها، حاولت تغطيتها بمساحيق التجميل لكنها ظلت ظاهرة كشمس أغسطس؛ فوضعت فوقها لاصقة طبية دون إعارتها انتباهًا حقيقيًّا، ثم اتجهت إلى العمل.

سألتني سوزان مديرة الموارد البشرية: ماذا حدث لي؟

أجبتها بأن فرع الشجرة الممتد من نافذتي المفتوحة قد أصاب وجهي أثناء نومي.

فطلبت مني قطع تلك الشجرة، وإغلاق نافذتي بإحكام، حتى لا توقظني فراشات الصباح. سوزان تخاف الفراشات، ثم أعطتني إجازة في محاولة منها للسيطرة على ميولي الانتحارية، كانت تشك أنني أطعن وجهي كل مساء.. لحسن الحظ لم أكن أفعل!

ابتهجت للإجازة المفاجئة؛ فقد كنت أمقت قضاء إجازتي الأسبوعية في الذهاب إلى الدكاترة أو التسوق أو حتى الخروج من منزلي، بسبب ذلك قررت عدم الانتظار إلى الغد، والمرور بإحدى العيادات في طريق عودتي إلى المنزل.

لم أقلق بشأن وجهي عندما رأيت تلك البقعة للمرة الأولى، فقد بدت بحجم حبة العدس تقريبًا، لكن عندما ذهبت إلى الحمام في منتصف اليوم لتغيير اللاصقة الطبية الرخيصة التي جف صمغها؛ وجدت حجمها قد تضاعف بشكل أثار وساوسي.

بحثت على إحدى منصات الطبية الإلكترونية عن أقرب الأطباء إلى منزلي في الشرابية.

حجزت أول طبيبة متاحة بعد مواعيد العمل الرسمية. لم يكن سعر كشف الطبيبة التي عثرت عليها بسيطًا، لكنها الأرخص نظرًا لأسعار الكشف التي يعرضها غيرها من الأطباء.

عظيم! سأدفع ١٥٠ جنيهًا مقابل بقعة في حجم حبة الفاصوليا على الأرجح ستصف لي "فيوسيدين" أو "كيناكومب" مع أي مضاد حيوي آخر.. لكن لا بأس؛ فكل ما أرغب فيه حقًا هو التأكد من أن تلك البقعة ليست مُعدية.

أصل إلى العيادة في تمام السابعة، بعد لفات عديدة حول العمارة كي أجد المدخل، أضيع خمس دقائق أخرى في متاهة البحث عن "الأسانسير"، ثم أقف أمام المدخل الرخامي الباهظ، واللافتة الطويلة المعلقة أمام باب العيادة (الشقة)..

"حقن بوتكس، شد الجسد، تفتيح المناطق الحساسة، إزالة الشعر بالليزر، جلسات للتخلص من السيلوليت... إلخ".

أدلف إلى الاستقبال ليصفعني الهواء البارد الصادر من المكيفات الثلاثة المعلقة في صالة الاستقبال. ثلاثة مكيفات هواء بقوة ثلاثة أحصنة! يقشعر جسدي إثر تعرضه لتلك البرودة المندفعة من كل مكان، وكذلك من تفكيري في فاتورة الكهرباء التي تدفعها هذه العيادة.

أجد امرأة تمسح البورسلين اللامع بمسحوق قوي الرائحة يُشبه الديتول، أسعل من الرائحة القوية فتنتبه لي.

تترك الممسحة، وتعرج متحركة نحو مكتب الاستقبال.

أردد: مساء الخير.

فلا تجيب.. أنقدها ثمن الكشف فتسألني عن الاسم؛ أتوتر وأخبرها أن اسمي "دينا" لأراها تخطَّه "دنيا" في كراستها!

لم يكن علي التوتر بشأن اسمي أمام تلك الجاهلة حقًا.

أجلس في انتظار الطبيبة.

توجه العاملة حديثها إلي: هناك بعض الجلسات المؤجلة منذ البارحة، إذا جاء أحدهم قبل مجيء الطبيبة سأُدخله قبلك.

أنظر إليها ببلادة دون إجابة مُخرجة كُتيب السودوكو الصغير، وسماعات الأذن وأستمع إلى "آيمي وينهاوس" تقول: ودَّعنا بعضنا ببعض الكلمات فقط، لقد مِت مئة مرة، دائمًا ما تعود أنت إليها، وأعود أنا إلينا.

أغرق في مربعات السودوكو دون الانتباه لمرور الوقت.. تصل الطبيبة بعد ساعة وعشر دقائق؛ لكني لم أكن متعجلة بالرحيل؛ فبعيدًا عن قلة ذوق عاملة الاستقبال إلا أن المكان لديه مياه معدنية وشاي وقهوة وشبكة إنترنت مفتوحة! كل هذا مجاني! لكني لم أشرب سوى فنجان من الشاي الأخضر بالنعناع، وكوبين من قارورة المياه المعدنية الكبيرة.

أدخل مكتبها، لأفاجأ بصغر سنها، أحاول ألا أقفز إلى أحكام مسبقة؛ لكني لا أستطيع كبح تفكيري بأن هذه الزيارة لن تكون أي شيء سوى كارثة كبيرة.

تنظر لي طبيبة الجلدية متسائلة حول شكواي.

أجيبها نازعة اللاصقة الطبية من فوق وجهي قائلة: لدي بقعة خضراء في وجهي.

ترتدي نظارتها الطبية، ثم تتناول أحد القفازات وتدخل أصابعها النحيلة بداخله.

تدور حول المكتب مقتربة مني، ثم تنحني لتفحص البقعة ضاغطة فوقها سائلة: هل تُؤلمك؟

-لا.. لا أشعر بشيء.

تسكت قليلًا ثم تتابع: لونها ليس أخضر، إنه أخضر مائل للزرقة.. ألم تحاولي دق وشم ما في وجهك؟ إن لونها يشبه لون الوشوم...

أقاطعها بصرامة: أنا أكره الإبر، كما أن تلك الرقعة التي تظنيها وشمًا تضاعف حجمها منذ الصباح حتى الآن.

تعود إلى مكتبها قائلة وهي تخلع قفازها، وتُعيده إلى علبة القفازات خلف مكتبها: لا يوجد أي مرض جلدي في العالم يستطيع إصابتك بهذا اللون، هذا وشم بلا شك.

أقف محاولة التحكم في أعصابي، أميل فوق مكتبها، أسحب القفاز الطبي الموضوع في العلبة ثم ألقيه في سلة المهملات المجاورة لها قائلة: شكرًا لإهدارك وقتي ومالي.

وأخرج من مكتبها غاضبة.. أي مخبول يوشم وجهه في مصر هكذا! بل وبوشم على شكل دائرة!

كان هذا أسخف الأشياء التي سمعتها في حياتي، والأسخف منه أنها لم تصدقني! لكني أرجعت الأمر لقلة خبرتها.

أعود إلى المنزل، أدخل من باب الشقة، أُغلق المفاتيح بجوار الباب، أغلق هاتفي المحمول وأضعه في حقيبتي، ثم أغلقها هي الأخرى بجوار المفاتيح.

أخلع حذائي الأسود، ثم أصفه بجانب أخيه البني بجوار باب الشقة متناولة خفي البلاستيكي المتآكل الأطراف.

أرى خالتي نائمة في الصالة وأمامها فوق طاولة صغيرة يقبع صندوق "عدة القهوة"، بينما يعرض التلفاز أحد المسلسلات الهندية التي تتابعها.

أقترب منه لأغلقه فتستيقظ.

تسألني: لماذا تأخرت؟

أخلع اللاصقة الطبية التي وضعتها في أسانسير العيادة: مررت بأحد أطباء الجلدية .. لدي بقعة خضراء في وجهي.

تعنفني قائلة: تلك الرقعة الخضراء ما هي إلا صرخة الخضراوات التي لا تكفين عن التهامها.

أرتمي فوق أحد كراسي الصالون المتهالكة وأسألها: إذن تظنين أن عودتي إلى أكل اللحوم سوف تحل هذا؟

تفتح صندوق القهوة مُجيبة وهي تُشعل السبرتاية الصغيرة: أظن أن عليك أن تصومي ٤٠ يومًا وليلة عن الطعام كما فعل المسيح، تُكفري عن ذنوبك كلها، ثم تعودين لتناول اللحوم من جديد وإلا ستفقدين وجهك كله.

أبتسم دون تعليق.. شُرب فنجان قهوة مع خالتي هو أحد طقوسي اليومية الأربعة. إنها محاولة للبقاء على أقل قدر من التواصل مع البشر؛ لكني اليوم على وجه التحديد لست في مزاجٍ يسمح بمناقشة ميولي النباتية. كما أن تلك الطبيبة لم تُفدني بشيء على الإطلاق، لهذا ينبغي لي زيارة طبيبٍ جديدٍ في الصباح.. لكن مجرد التفكير في الأمر يبدو ثقيلًا على قلبي.

غدًا ستكون مرتي الثانية في الشهر ذاته التي أذهب فيها إلى طبيب. كنت قد خططت لإقامة فحص جسدي شامل في نهاية كل عام حتى أتأكد من صحتي، وفي الحالات الطارئة -فقط- أذهب إلى الطبيب. عندما أشك أن دور البرد البسيط قد ينقلب إلى التهاب رئوي، أو عندما يغمرني ظهري بآلامه المعتادة كل بضعة أشهر،

وتفشل حقنة "الفولتارين"، ومرهم "الموف"، وقربة المياه الساخنة في إصلاح العلاقة بيننا.

لذلك فذهابي إلى طبيبين كان يفوق طاقتي النفسية على احتمال التواصل المباشر، وبالطبع طاقة جيبي!

أتناول فنجان القهوة مع خالتي على مضض، بينما تشاهد هي أحد الأفلام.

ألقي نظرة سريعة على التلفاز قائلة: ألم تشاهدي هذا الفيلم البارحة؟

- لا، لقد كان فيلمًا للبطل نفسه، هذا يُدعى "أحيانًا السعادة وأحيانًا الحزن".

- من يتزوج؟

- الهنود يرتدون الأبيض في الجنازات.

- هل يحرقون أمواتهم أم يدفنونهم؟

ترمقني بنظرة نارية، فأعدل عن الحديث معها، فهي تبدو مشغولة بفيلمها.

أذهب إلى غرفتي، أخرج حاسوبي الصغير من درجه وأشغله.

أبحث عن تلك الطبيبة على أحد المنصات الطبية، وأعطها تقييمًا سيئًا، حاكية موقف القفاز.

ثم أبدأ في عملية البحث عن عيادة جديدة.

-٢-

أعتبر مستشفى "ماري جرجس" الأقرب إلى قلبي دونًا عن جميع المستشفيات، رغم ازدحامها، وكونها ليست قريبة من منزلي، لكني لا أهتم كثيرًا بعامل المسافة أو الازدحام؛ إذا ما كانت الأسعار بسيطة والجودة ممتازة؛ وهاتان الصفتان تتوفران في "ماري جرجس"، كما أن الأموال الخاصة بالكشف يُتبرع بها.

مع اقتراب (أحد السعف) يصطف باعة جريد النخيل الجائلين بطول رصيف المستشفى، أعطي طفلة صغيرة تبيع الجريد بضعة جنيهات، وآخذ منها بعض السعوف التي ستُفرح خالتي بالتأكيد، لعلها تكف عن تقريعي بسبب عدم الصيام.

لم يكن الازدحام بسبب الباعة الجائلين فقط ولكن لأننا في رمضان أيضًا؛ حيث لا تعمل العيادات في العادة إلا في وقت متأخر من اليوم، ولسويعات قليلة؛ لهذا يلجأ المسلمون إلى العيادات المسيحية.

أقف والشمس مُسلطة فوق رأسي، أُظهر بطاقتي عند بوابة الكنيسة، وأمر من خلال بوابة التفتيش المعدنية، بينما أفتح حقيبتي القماشية للضابطة الجالسة بجوار البوابة كي ترى ما بداخلها. لم يكن بداخلها الكثير على كل حال. مجرد كتاب "سودوكو"، وعلبة طعام صغيرة، وحافظة نقود، وسلسلة مفاتيح.. كيس من المناديل الورقية، وعلبة صغيرة تحتوي على صابون لليدين، وزجاجة طلاء أظافر ذهبي اللون من النوع الرخيص.

صعدت السلالم بجانبي إلى الدور الأول متجنبة الأطفال المهرولين نزولًا فوق السلالم حتى وصلت إلى مكتب الاستقبال.

موظفة الاستقبال "مدام سحر" ذاتها لم تتغير، وكوب الشاي الفارغ بيده المكسورة والورود الباهتة لم يتغير أيضًا.. ترتدي الألوان ذاتها، البلوزة الحمراء، والجيب القصير المرقط، والحلق الكبير النحاسي المقشر الأطراف مثل طلاء أظافرها، والروج الفوشيا الذي يزيد من حدة شفتيها.. شعرها الأشقر المنفوش يظهر عليه أثر حرق المكواة. إنه خطأ المحاولات المنزلية لفرده أو الذهاب للكوافيرات الرخيصة. أظن أن عددًا لا بأس به من الكوافيرات في الأماكن الشعبية في مصر لا يزالون يستخدمون المكواة الحديدية التي تُسخن على شعلات اللهب.

تقطع مدام "سحر" أفكاري مبتسمة وهي تقول: صباح الخير.. أي تخصص؟

- صباح النور.. جلدية من فضلك.

تخرج دفتر ورقي حاجزة التذكرة قائلة: اسمك؟

آه.. هنا يأتي أكثر الأسئلة تعقيدًا، ولكوني ما زلت لا أشعر بالألفة حول اسمي وكأنه ضيف غريب؛ لذلك لا أحب أن أتصل بأحدهم، أو أطلب أحد المطاعم، أو أكتب أي فاتورة باسمي.. أكره المعاملات البنكية كذلك لما قد يصحبها من استظراف.

في العادة أختار اسمًا عشوائيًا لقوله، لكن هذه المرة اخترت أن أفصح عنه.. أو عن جزء صغير منه.

أجيبها بعد تردد: أنيس...

- ثنائي؟

أضغط على شفتي مفكرة في اسم مقبول يليق بأنيس ثم أجيبها: مـ. منتصر.

ترفع رأسها ناظرة لي بتشكك من خلف نظارتها الذهبية ذات السلسلة المعلقة حول رقبتها: أنيس منتصر؟

تهز كتفيها دون انتظار إجابتي، قاطعة الورقة وهي تقول: ستة وخمسون جنيهًا.

أهز رأسي واضعة يدي في الحقيبة مُخرجة حافظة نقودي، أخرج ورقتين من فئة عشرين جنيهًا، وورقة من فئة عشرة جنيهات، وورقة بخمسة جنيهات، وجنيه مكون من نصفين لامعين طبع فوقهما شعار قناة السويس الجديدة.

في الحقيقة لم أكن أرغب في التفريط فيهما؛ فخالتي تحب تجميعهم في مرطبان كبير خاص بالمخلل.

تتابع: رقم خمسة وعشرين. الطبيب ما يزال في الطريق سيصل خلال نصف ساعة.

أتمتم كالمصعوقة ناظرة في التذكرة: خمسة وعشرون!

تهز رأسها بأسف وهي تشير بنظرها إلى الرواق الطويل الممتلئ بالأشخاص الجالسين فوق المقاعد، والواقفين في أي مكان فارغ.

أهز رأسي بأسف، ثم أخرج زجاجة المانيكير قائلة قبل أن أتركها وأذهب: صحيح.. أظن أن هذا المانيكير سيليق بكِ.

تلمع عيناها وهي تتناوله مني قائلة: لم يكن عليكِ فعل هذا!

ابتسم لها ثم أستدير مبتعدة فتناديني: أنيس.

ألتفت إليها فتتابع: عودي بعد نصف ساعة من أجل كشف عاجل.

أهز لها رأسي في امتنان، ثم أتجه نحو السلالم من جديد ممتنة لزجاجة طلاء لم تكلفني سوى خمسة جنيهات ستوفر عليّ عناء البقاء ثلاث ساعات على الأقل في الطابور.

لم تكن تلك فكرتي؛ إنها فكرة خالتي، التي تعرف مدام "سحر" بشكل كبير، وتعرف حبها لتلك الهدايا الصغيرة التي تُشعرها بأهميتها.

إنها امرأة بائسة تقضي يومها في قطع التذاكر، ومشاهدة ما تجود به قناة "CTV" الأرثوذكسية عليها، ثم تعود إلى منزلها وترتدي روب الاستحمام مشاهدة أحد الأفلام الكلاسيكية أمام التلفاز، ولا أدري لماذا أحب فعل ذلك؛ تخيل الأشخاص أمامي، وماذا يفعلون في حياتهم بعد ذلك.

أتخيلها الآن تضع المانيكير في منزلها وترتدي خاتمًا جديدًا ليظهر أصابعها الطويلة وأنا أنزل إلى الدور السفلي وأدلف إلى الكافيتيريا.

لم أكن من النوع الذي يضع طلاء الأظافر، فقط أصابعي لم تكن من ذلك النوع الذي يناسبه تلك الأشياء، الخواتم أيضًا، لكن عندما كنت صغيرة كنت أعبث بالألوان الفلوماستر، محاولة رسم قوس قزح مثالي فوق أظافري، متخيلة مدى إعجاب جميع من في مدرستي بذلك.

وقد تمكنت من صنعه، طلاء أظافر نموذجي على شكل قوس قزح؛ لكني لم أتمكن من الذهاب إلى المدرسة لأبهر به زميلاتي.. لقد حرق والدي يدي يومها لأنني طفلة سيئة.

أتذكر هذا وأنا أرمق مكان الحرق الطفيف الذي لم يعد يظهر أثره بالنسبة إلى من حولي لكنه جليٌ بالنسبة لي.

أشتري كوبًا من الشاي الأخضر، ثم أجلس فوق إحدى الطاولات الشاغرات مُخرجة علبة طعامي الصغيرة وكتاب السودوكو.

أفتح العلبة المكونة من ساندوتش فول، وقطع من الخيار والجزر وبيضة مسلوقة.. إنه الإفطار المناسب لامرأة نباتية!

لم أصر نباتية لأنني أكره اللحوم، أنا ببساطة تخطيت منتصف الثلاثينات. وكان عليّ ترك العديد من الأشياء خلفي مثل السجائر، والكحول، و"الفاست فوود"، واللحوم أيضًا البيضاء والحمراء سواء كانت مصنعة أو غير ذلك. لكني ما زلت أتناول البيض والجبن، والزبادي والحليب. متوقفة عن تناول الخبز الأبيض والمعكرونة إلا فيما ندر. كذلك قل استهلاكي للقهوة والشاي، والسكر والملح.

اتخذت كل الإجراءات الوقائية كي لا يصيبني أحد الأمراض المزمنة، وبدأت في الادخار لتقاعدي وإن كانت خطوة متأخرة عقدا من الزمن.

باشرت في ممارسة المشي والتأمل لمدة ساعة بشكل يوميّ وساعتين في أيام العطلات حتى وجدت تحسنًا ملحوظًا في وزني وشكلي. كذلك كثافة شعري الذي أصبح كخرقة بالية، وبشرتي التي استعادت حيويتها بشكل أذهل من حولي، ظننت أن كل شيء يسير حسب رغبتي، وأنني أهتم بنفسي أفضل اهتمام؛ حتى ظهرت تلك البقعة الخضراء اللعينة.

أخرجت تلك الأفكار من رأسي؛ فهي لن تفيدني على أي حال، وبدأت في تناول طعامي.. الخضراوات في البداية، ثم البيضة وبعدها الساندوتش. أغلق العلبة من جديد وأضعها في الحقيبة. ثم أتفرغ لصفحة من السودوكو وأنا أرشف كوب الشاي الذي ينتهي سريعًا وتنتهي معه النصف ساعة.

أقف نافضة حبيبات الردة من فوق قميصي وبنطالي، ثم أمسك بكوب الشاي الورقي وأضعه في أقرب سلة مهملات، صاعدة من جديد إلى العيادات.

لم يكن الطبيب قد وصل بعد، وأضطر للجلوس قليلًا مع مربعات السودوكو، وسماعات الهاتف في أذني دون السماع لأي شيء. فقط متجنبة الحديث مع من حولي.

بعد قليل يقف الشاب الجالس بجواري بغتةً مما يشتت انتباهي. أجده يُجلس

أبونا مكانه. ثم ينحني مقبلًا يده، بينما تحيط بالفتى بعض نظرات الاستنكار، بل أظن أن هناك من تمتم شيئا على غرار "الحمد لله على نعمة الإسلام"!

لم أستطع التركيز جيدًا فيما يحدث أمامي لأن مدام "سحر" نادتني من أجل الكشف.

طبيب الجلدية الثاني كان رجلٌ كبيرٌ في السن. لهذا ربما يكون قد صادف حالة مشابهة لحالتي من قبل.

نظر إلى الورقة التي تحمل اسمي قائلًا: كيف أساعدك يا أستاذة أنيس؟

نزعت الضمادة من فوق خدي كي أظهر له البقعة الخضراء.

- هل جُرحت في هذا المكان من قبل؟ أو ظهرت لكِ بثرة فقأتها؟

- لا.. هذا لم يحدث لي من قبل، ربما تكون هناك بثرة ظهرت في وقت ما، لكن لا أظن أنني لمستها بأي شكل من الأشكال؛ فأنا أداوم على استخدام اللاصقات الطبية خاصة عند ظهور البثرات حتى لا أهرش بها عن طريق الخطأ.

- هذا اللون غريب.. هل أنت متأكدة أنه ليس وشمًا لشيء ما؟

- لا، أنا أكره الإبر.

يقف خلف مكتبه، ويفتح عُلبة تُشبه علب المحارم الورقية ويتناول منها قفازًا طبيًّا، ثم يقترب مني لأبعد رأسي بشكل تلقائي؛ يبتسم مطمئنًا، ثم يضغط هو الآخر فوق الرقعة قليلًا.. لا أدري سبب حبهم في الضغط فوق وجهي! لكنه لم يسألني إذا كانت تؤلمني أم لا.

يُخرج عدسة مكبرة من جراب أسود فوق مكتبه، ثم يعاود فحص الرقعة من جديد. ما أن ينتهي حتى يجلس خلف مكتبه من جديد شارحًا لي وضعي الصحي قائلًا: حسنًا، لو كانت في أي مكان آخر في جسدك لاقترحت أخذ عينة وتحليلها،

أو محاولة فتحها كي نعرف ما إذا كان بداخلها صديد متجمع مع بعض الأوساخ ولكن هذا مستبعد نظرًا لملمسها. على كل حال كل هذا سوف يترك ندبة واضحة، ستحتاج إلى عملية تجميلية.

ينتظر عدة ثوانٍ آملًا في تعليقي، وعندما يجدني ملتزمة بالصمت يخرج كارتًا صغيرًا من درج مكتبه مادًا به يده تجاهي متابعًا: هذا عنوان عيادتي الخاصة، والمستشفى الذي أعمل به، العيادات هنا غير مجهزة لذلك، بإمكانك الاتصال وحجز موعدك إذا ما رغبت فيما عرضته عليكِ من قبل، ويمكنني ترشيح أحد أطباء التجميل الجيدين لك كذلك.

أتناول منه الكارت وأنا أشكره لتعاونه، ثم أغادر خائبة الأمل من جديد.

- 3 -

لم تكن العودة للعمل بالضمادة من جديد أمرًا سهلًا؛ فتلك البقعة التي اضطررت لتغطيتها جعلتني بغتةً كائنًا مرئيًّا للجميع.

توقفت "نهال" محاسبة الشركة ثلاث مرات مبدية قلقها، وسائلة حول ما إذا كانت هناك نوبات قلق أو اكتئاب تصيبني.

في المرة الرابعة التي توقفت فيها للاطمئنان حولي؛ أود الصراخ في وجهها كاشفة الضمادة: لدي بقعة خضراء في وجهي يا ملسوعة.. ها هي.. بقعة خضراء مائلة للزرقة يظنها الجميع وشمًا، ولا أدري سببها.

لكني خفت من كشف هذا، فأنا لم أنس تعامل البعض مع الفتاة المصابة بالصدفية التي بدأت تدريبها الشهر الماضي ولم تتم أسبوعًا حتى استقالت. كذلك عامل النظافة المصاب بالبهاق الذي طلبوا منه ألا يمس أشيائهم، ولم يهدأ لهن بالٌ حتى قطعن عيشه.

أنا لا أستطيع الاستقالة الآن، كذلك لا أعرف ماذا أقول إذا ما رأى أحدهم تلك البقعة بالصدفة، هل أخبره أنها وشم ما؟. بأي عقل سأقول أنني فعلت هذا بإرادتي الحرة؟ أم علي الادعاء بكوني تناولت كأسين من "الواين"؟.. من يفعل هذا على كل حال بعد القليل من "الواين"!.. حتى وإن تحدث البعض عن سكرهم وعربدتهم أنا لن أفعل هذا.. هذا غير ملائم أنا امرأة في منتصف الثلاثينات، غير متزوجة.. لن أسلم من نظرات الاحتقار التي ستصيبني من النساء، ودعوات زملاء

العمل للشراب باعتباري امرأة متفتحة قد تُلقي نفسها لأي رجل. لا حل إذن أمامي سوى الضمادة.

يخرجني صوت "نهال" من أفكاري وهي تشتكي لـسوزان وأنا أضع سماعات الحاسوب في أذني كعادتي غير مستمعة لأي شيء: اشتريت طبق فول وطبق طعمية وطبق باذنجان مخلل وعلبة من الكولا بما يفوق الخمسين جنيهًا!

تشتكي سوزان بدورها مُزايدة: لم أذهب إلى صالون الشعر منذ بداية الأسبوع، وذلك الجشع صاحب الجراج، يرغب في زيادة الشهرية خمسين جنيهًا لتصبح خمسمائة بدلًا من أربعمائة وخمسين جنيهًا!

أكبح ضحكتي الساخرة، وكأنني أخمن رد المحاسبة في رأسي حيث أنها تعرف جيدًا حجم الراتب الذي تتلقاه سوزان، وحتى إن كانت تتلقى راتبًا صغيرًا؛ فهي لا تبدو كمن يحتاج إلى المزيد من الأموال؛ فهي تملك سيارتين كلاهما ماركة "بورش" مع اختلاف اللون، خُطبت السنة الماضية لأحد أهم عملاء الشركة، تعيش في شقة تمليك واسعة من طابقين في الزمالك تطل على النيل، وتملك شقة أخرى في إحدى ضواحي المهندسين تؤجرها بثلاثين ألف جنيه في الشهر الواحد، لكنها تؤجرها للعرب بالطبع؛ فمصر أصبحت مزارًا رخيصًا بالنسبة لهم بعد التعويم، كذلك لا يجد أصحاب الشقق أي ضير في التعامل بقانون "المصلحة"، الذي ينص على نهب الوافدين أيًا كانت جنسيتهم! حتى أن بعض إعلانات الشقق المؤجرة تنص على الدفع بالدولار والتأجير للأجانب فقط!

قبل قراري بأن أصبح نباتية في منتصف الثلاثينات كان قرص من الطعمية ورغيف فينو ساخن والقليل من الخيار الذي خللته خالتي منزليًا للإفطار وجبة كفيلة بجعل صباحي أكثر بهجة، أو قرص من السميط المقرمش الدافئ وكوب من الشاي بالحليب، فوقه قطعة من القشطة مستديرة كالبدر.

وفي أيامي العظيمة، التي أرغب فيها بالشعور بالرفاهية؛ كنت أشتري الجبن الرومي، والعيش الساخن، والزيتون الأخضر المخلل الذي لم تستطع أمي حتى وفاتها التوصل إلى طريقة تجعله أقل مرارة. أشرب معه كوب النسكافيه، أضع القليل من المياه ونصف ملعقة من السكر - في العادة أشرب القهوة سادة، ولكن لأجل تلك الرغوة المحببة إلى قلبي أضع نصف ملعقة من السكر، وأبدأ في التقليب، أقلب وأقلب حتى تؤلمني أصابعي، رسغي، وكتفي.. ثم أظفر بتلك السحابة الصافية، التي يحولها الحليب إلى لون الكراميل.

عندها كل شيء يصبح ذا معنى فجأة، أجلس في سريري، وأراقب غصن الشجرة، والشمس المتسللة، وبُرصي وَزغي الصغير الذي يحميني من لدغات الناموس.. كل تلك الأشياء تعيدني للحياة، أتفتح معها.. شيئًا فشيئًا تتسلل تلك الشمس إلى قلبي، وتخرج منه وردة على استحياء.

لكن دائمًا ما يحدث شيء ما يطفئني.. تليفون ممل من العمل، أو رسالة إلكترونية لمهام ما ينبغي فعلها في التو لتقطع سلامي النفسي.. ثم أغرق من جديد في العمل، ويتحول كوب النسكافيه الذي وضعت فيه كل قوتي وحبي فجأة إلى كوب من الـ"آيس لاتيه" الرخيص.

يحدث هذا غالبًا لأجمل أيامي.. لأغلب عطلاتي الأسبوعية على وجه التحديد؛ وكأن هناك شخص ما يرغب بإفساد ذلك الوقت الصغير الذي أقضيه في انعزالي؛ شاحنة طاقتي التي سأبددها على البشر في الخمسة أيام الأخرى.. تلك الأيام التي تبدأ بالرغبة العارمة في إنجاز كل شيء، إنجاز الحياة نفسها.. لكن ينتهي بي الأمر بالتقليب في مواقع التواصل الاجتماعي لأرد على العديد من الأشخاص الذين لا أعرفهم، دون أن أكتب رسالة واحدة لأي شخص في قائمة أصدقائي القصيرة.

أحاول أحيانًا النظر لحياتي من وجهة نظر الآخرين؛ إن حياتي حقًا بلا أي

نكهة، رتيبة ومملة وبائسة؛ كلون أصفر باهت.. ليس كالأبيض الكريمي، أو الأبيض المنطفئ.. إنه لون لا يرغب فيه أحد، كأن يسكُب أحدهم فنجان من الشاي الأصفر فوق قميص حريري ناصع البياض.. إنه لون المعكرونة المسلوقة.. حياتي بالضبط تُشبه طبقا من السباغيتي المسلوقة.. باردة وغير مميزة، مكررة كملايين الفتيات هنا، ويصعب أكلها في مواعيد العشاء. إنه طبق لا يؤكل أمام أحد؛ إلا لإثبات أناقة ما أو عدم اكتراث، بالتالي كان الشيء الوحيد المثير للاهتمام الذي حدث لي منذ ميلادي كـ"طبق من المعكرونة" وإن كان يثير حنقي هو ظهور تلك الرقعة الخضراء اللعينة التي نبتت لي.

أفكر في هذا وأنا أرى رسالة تظهر فجأة أمامي، من إحدى بنات عمومتي التي تعيش في أمريكا.

لم أحاول التواصل مع أقاربي قط، ليس في حياة أمي أو بعد مماتها. في حياتها كانت تقوم بهذا الدور، أما بعد ذلك فخالتي تتولاه. إذا تجنبنا أن أكثر من نصف أقاربي لديهم الآن إقامة دائمة في أمريكا وإيطاليا.

حاول بعضهم التواصل معي فيما مضى لكن لم يكن لدي حساب وقتها على فيسبوك، وكنت أكتفي بحساب على موقع الـ"جوود ريدز".

أما الآن فلدي عدد هائل من الحسابات المختلفة على جميع التطبيقات تقريبًا بسبب عملي كمديرة لحسابات بعض الشركات على مواقع التواصل الاجتماعي؛ ذلك العمل الذي يحيط بي من كل جهة كأخطبوط.. أنا محاصرة تمامًا لا أستطيع إغلاق هاتفي، أو عضوية الفيسبوك. علي أن أتابع كل ما يخص "الميديا" إذا كنت أرغب في استمرار الحوالة المالية الشهرية التي تعيلني، وتضمن لي ألا أموت جوعًا. لكن الآن أصبح لدي قلقٌ جديدٌ بخلاف المال، وهو اتساع تلك الرقعة الخضراء، ووميض صندوق رسائلي!

يومض صندوق الرسائل من جديد مؤشرًا برسالة من ابنة عمي البعيدة.. تتبعها بأخرى.. ثم أخرى...

ذلك الصوت اللعين للإشعارات يوشك على إفقادي صوابي. أتمالك أعصابي، وأتنفس بعمق، ثم أفتح الرسالة.

- 4 -

أحد ميزات العوائل هي كونك لا تحتاج إلى مناسبة ما لإنشاء صداقة معهم؛ هم موجودون منذ البداية، أبناء العمات والأخوال من الصعب معرفة متى بدأت تلك العلاقة بالضبط.. إنهم كالأخوات لا تدري أول جملة تبادلتموها لهذا هي علاقة لا تعتمد على أي مجهود ذاتي.. "موجودة" ونستغلها؛ لكن هذا ليس الحال بالنسبة لعائلتي، بالنسبة لسني أيضًا الذي يجعلني في مقام الخالة أو العمة كما تدعوني الآن تلك المُراسلة ذات العشرين عامًا بذلك الوشم الكبير المرسوم للين واليانج فوق قفاها! لماذا يحب الناس وشم أقفيتهم! هذا غريب جدًا!

-عمة أنيس،

هل هذا وقت مناسب لمراسلتك؟

لقد حكت لي أمي الكثير عنكِ،

وكنت أرغب في تمضية بعض الوقت في مصر،

ليس الآن،

ربما الشتاء القادم،

لكن هناك الكثير من الأخبار السيئة تأتينا عن مصر،

عمليات إرهابية كبيرة،

وإنها من أخطر الأماكن على النساء،

هل هذا حقيقي؟

أقرأ الرسالة للمرة الثالثة ثم أقفلها.. لن أجيبها الآن.. لا.. هناك أمر أهم عليّ التفكير به الآن.. هل سأنتظر حتى عطلة نهاية الأسبوع كي أذهب إلى تلك العيادة الخاصة من أجل تحليل قطعة من "وجهي"؟

يتسلل داخلي شعور بالضيق من فكرة اضطراري لعمل عملية تجميلية؛ ثم آخذ في لوم الأماكن الرخيصة مُقرعة نفسي: كان ينبغي لي منذ البداية الذهاب إلى "مركز المحبة". نعم سأدفع الكثير من الأموال؛ لكني في النهاية سوف أحصل على خدمة طبية ممتازة.

بالطبع سيختلف الأمر لو امتلكت تأمينًا صحيًّا، كانت تلك التكلفة سوف تنخفض إلى النصف تقريبًا.

تقطع أفكاري سوزان واقفة أمام مكتبي فجأة مختالة بقوامها المائل للامتلاء الذي حشرته في أحد الفساتين الزهرية الضيقة القصيرة؛ لم أرَ تلك المرأة ترتدي الشيء ذاته مرتين أبدًا! ماذا تفعل بكل تلك الفساتين؟! هل تملك متجر ملابس؟!

- هل تغيبت عن العمل خمسة أيام هذا الشهر؟

أرفع رأسي ناظرة لها، نازعة سماعتي الأذن.. بدا لون شعرها الأحمر القصير في قصته الذكورية وكأنه صُبغ للتو، لكنه يناسب بشرتها البيضاء الصافية.. إن ملامحها جميلة لدرجة مؤلمة.. إنها تبدو كشخص يدعى سوزان حقًا، يدللها الرجال بـ"سوزي"، أو أي اسم آخر.. في الحقيقة أن اسم "أنيس" كان ليبدو باهرًا فقط إن كان اسمها! كان يجدر بأهلي تسميتي سوزان أيضًا بدلًا من ذلك الاسم السخيف، ربما وقتها كنت سأحظى ببعض جمالها الباهر.

أجيبها: هل تعرفين أن سوزان يعني زهرة اللوتس؟

ترجع رأسها للوراء مصدومة من تلك الإجابة؛ فأستمر في كلامي: إنها زهرة نبيلة حقًا، لو ولدت زهرة كنت بلا شك سأكون زهرة اللوتس.. زرقاء على وجه التحديد؛ إن الأزرق أكثر الألوان مثالية.

تسألني: وإذا ولدت حيوانًا؟

أتنهد ثم أجيبها: أخطبوط.

- هل لأنه يملك دماء زرقاء أيضًا؟

- إن الأزرق اللون الأقرب إلى قلبي، لكن لا.. لأنه يلتهم نفسه عند التوتر، يأكل أطرافه. إنه حيوان مسكين حقًا.. ثم آه.. كنت أعمل من المنزل.

تتراجع عن محادثتنا عائدة لحوارنا الأصلي: حسب قوانين المكتب لديك يومان فقط في الشهر للعمل من المنزل.

أرد بتبجح: وحسب قانون العمل لا بد أن يكون هناك تأمين صحي.. أليس كذلك؟

ترمقني بنظرة مطولة ثم ترد: على كل حال الأمر لا يعود لي فيما يخص..

أقاطعها بملل: بل يعود إلى رئيسي المباشر، وبما أنه استقال؛ فنحن في انتظار الرئيس الجديد الذي سوف يُعين الشهر القادم، وينظر في وضعي الصحي، بالنسبة لي فأنا أتم عملي على أكمل وجه؛ لذلك لا يهتم صاحب الشركة نفسه بعدد الأيام التي لا أريكم بها طلتي البهية.

تسألني بجدية: هل أنتِ بخير؟ هل أنتِ بحاجة إلى إجازة؟

- إنه فقط.. أنا كثيرة المرض.

أحاول إيجاد كلمات مناسبة كي أجيبها: أمرض بشكل نفسي.. تستيقظ حواسي كلها لكني أفقد القدرة على الحركة. بعد مرور بضع ساعات أتمكن فقط من تحريك أصابعي لإرسال رسالة اعتذار عن عدم الحضور.. إنه شعور أقرب إلى الجاثوم.

- هل ذهبت لرؤية أحد الأطباء؟

- فشل أطباء المخ والأعصاب في معرفة ما بي، يبدو أن الأمر ليس عضويًّا على كل حال. طلبوا مني مراجعة طبيب نفسي لكني لم أذهب إلى أحدهم حتى الآن.

- أخي "ريمون" طبيب نفسي!

وهذه بالطبع معلومة أعرفها؛ فحديث سوزان عن أخيها لا ينقطع.

- عظيم، ربما أزوره يومًا.

- انتظري...

تخرج هاتفها من جيبها وتمسكه كاتبة شيئًا ما: ربما يستطيع إدخالك اليوم في استشارة سريعة، إن عيادته قريبة من هُنا.. لا تقلقي استشارة مجانية.

تقولها وهي تغمز لي!

- سوف أرسل لكِ عنوان العيادة والموعد ما أن يجيبني.

تنصرف جاعلة المكتب كله يسمع جملتها، لم أهتم كثيرًا لإظهارها إسدائي خدمة؛ كما لم أجد ضيرًا من المرور بدكتور "ريمون" في طريق عودتي، وخصوصًا كون تلك الاستشارة مجانية!

أعترف بتملكي بعض الفضول لرؤية ذلك الشخص الذي تفخر به طوال الوقت وتثرثر حوله.

لم يكن "ريمون" وسيمًا، ملامحه طفولية للغاية، يرتدي قميصًا أبيض عاديًّا لا يدل على أي شيء.. مجرد قميص قطني، شديد النحول لكن لديه بطن منتفخ صغير ربما يعود إلى شرب البيرة، أو ببساطة القعدة المكتبية وقلة ممارسة الرياضة.

لمدة عشر دقائق ظل يبتسم في وجهي، يسألني عن أحوال العمل وعن أخته وكأنه لا يراها إلا لمامًا!

لم أشعر بالإحباط عندما لم أجد ذلك "الشازلونج" الذي ألقي بنفسي فوقه وأخرج مكنونات صدري.

ولم أفترض أن إخراجي لتلك المكنونات اختيارًا ذكيًّا؛ كأن أخبره أنني أكره ارتداء الملابس الداخلية في منزلي، ولا أشعر بانجذاب ناحية أي شخص سواي، أو الأسوأ.. أخبره بشعوري الدائم بكوني مراقبة!

أنا لا أثق في مهنية الأطباء المصريين، ولا أدري ما الذي سوف يثرثر به لأخته؛ لهذا قررت أن أكون شخصًا مقتضبًا.

يبدأ في سؤالي عن أحوالي أخيرًا قائلًا: أخبريني.. مم تشتكين؟

لم يكن هذا السؤال مناسبًا.. "أخبريني مم تشتكين؟" هل هكذا يبدأ مع مرضاه! يا له من فاشل!

أجيبه باقتضاب: لا أستطيع الخروج من السرير والذهاب إلى العمل كل يوم.

- ماذا حدث لوجهك؟

يوجه إصبعه نحو اللاصقة الطبية.

- حساسية.

- غريب!

يستمر في إلقاء الأسئلة التي تجعلني أشعر بالمُحَاصرة؛ في محاولة بلهاء لمعرفة تفاصيل أكثر عن حياتي وطفولتي وعائلتي، لكني أخبره أني "لا أعاني من أي مشاكل تخص عائلتي".

كاذبة.. لكن من يهتم!

يباشر في التململ عندما يجدني أجيب باقتضاب على جميع الأسئلة، بشكل متقطع وغير مترابط؛ فاكتفى بكتابة جرعة عالية من الـ"سبراليكس".

أنظر في الوصفة الطبية قائلة: حسنًا.. أنا لن آخذ هذا الدواء.. أتعلم ماذا يفعل في الرأس؟

يجيب بقلق: أعرف، لهذا أصفه لكِ؟!

أضع ورقة الوصفة فوق مكتبه، ثم أدفعها باتجاهه قائلة: حسنًا.. كان هذا مخيبًا للأمل.

ثم أتركه وأخرج.

صيد الأبيض

- 5 -

- يا لك من قليلة الذوق!

أرفع وجهي نازعة -كالعادة- سماعات الأذن لأرى سوزان تقف مرتدية فستانًا برتقاليًّا اليوم يشابه فستان البارحة قليلًا، تبدو متألقة كعادتها لكن عينيها لا تبشران بأي خير.

أفكر قليلًا في التظاهر بالبراءة؛ لكنها لن تُجدي بالتأكيد؛ فأقرر عدم الرد عليها، لتبدأ هي سلسلة شجار وتُنهيها بأننا لن نكون أصدقاء بعد اليوم.

لم أفكر في علاقتي بـسوزان من قبل.. لم أظن أنها تعتبرني صديقتها من الأساس؛ رُبما لأنها تُصادق الجميع.. لكنها لحوح قليلًا.. حشرية.. في بداية عملها التصقت بي لفترة طويلة لكوني المسيحية الأنثى الوحيدة بالشركة، وهذا ضايقني كثيراً كشخص يُحب العُزلة بطبعه.

لكن هذا غالبًا ما يحدث للمسيحيين الذين لديهم أسماء تُعبر عن عقيدتهم، أو صليبًا يكشف هويتهم. لم يكن لدي صليبٌ - بل ملكت سوزان صليبًا - على عكس مينا، و"فادي"، و"عادل" زملاء العمل الآخرين المسيحيين. أو على الأقل لم يملكوا صليبًا ظاهرًا. أعتقد أنني لمحت بشكل ما صليبًا فوق ذراع مينا - بالقرب من كتفه - في أحد الأيام التي ارتدى فيها قميصًا واسع الأكمام وقد ثناه إلى أعلى وهو ينظف الأرضيات.. هناك جزء ما ظهر من ذلك الصليب، لكني لم أسأله إذا كان مجرد وشم أم صليب، واكتفيت بالتخمين.

سبق تضرر علاقتي بـسوزان بأيام قليلة؛ تضرر علاقتي بـمينا عامل البوفيه.

في وقت ما كانت علاقتنا جيدة، أو كما أحب وصفها دائمًا "في حدود المعقول". يسألني عند طلب الإفطار إذا ما كنت أرغب في الإفطار مع الجميع، وكنت أحاول أحيانًا تناول الإفطار مع الجميع على سبيل ترك الباب مواربًا؛ فلن أستفيد شيئًا إذا تجنبت الجميع، لكن كان ينتهي بي الأمر دائمًا مع طبق إفطاري جالسة أمام مكتبي، أعمل بينما آكل، أو أشاهد أحد الفيديوهات الخاصة بإنقاذ الحيوانات في الهند أو كوريا الجنوبية على سبيل المثال.

لم أستلطف مينا؛ لأن طبيعتي كانت تأبى الاستسلام لاستلطاف الأشخاص في المطلق. دائمًا ما أكون قادرة على إخراج شيء واحد.. صفة واحدة مزعجة على الأقل. وفي مينا استطعت إيجاد أكثر من صفة مزعجة مثل تشاؤمه الدائم، شكواه غير المنقطعة، ولكن أكثر ما كان يثير جنوني هو "شعرة بيضاء في لحيته"، تقف عرضًا متحدية جميع الشعر الأسود من حولها. تلك الشعرة شابهت شعرة في ذقن والدي، طالما حدقت إليها، مفكرة في طرق للتخلص منها.

في الحقيقة إن غرق أفكاري في شعرة والدي تلك لم يكن سوى وسيلة لهروبي من زعيقه وصياحه، تقريعه الدائم لي، قدرته على مواصلة الشجار وعدم الكف عن الكلام لساعة أو أكثر.

كنت أقف أمامه مبتلعة كل تلك الإهانات، لم أكن أستطيع أن أهرب من أمامه؛ فكنت أهرب إلى تلك الشعرة، التي تجعل صوت والدي بعيدًا جدًا.

وهذا ما حدث مع مينا أيضًا، كانت تلك الشعرة تجعلني لا أنتبه إلى نصف كلامه عندما يسألني إذا كنت أرغب في شرب شيء ما.

ظللت أحدق إلى الشعرة كالمجذوبة، وبقيت ليلة الجمعة الماضية أحملق في سقف غرفتي محاولة ابتكار خطة ما كي أستطيع نزعها، لأنه كما يبدو لي لم

يكن على علم بتلك الشعرة، أو لعله لا يهتم بها؛ لكن الأمر حقًا كان يزعجني، ويسحبني من واقعي إلى مكان لا أرغب في التواجد به.

بعد تلك الليلة العصيبة قررت القضاء على تلك الشعرة للأبد وإلا سأُجن.

ذهبت إلى العمل يوم الأحد، دخلت إلى المطبخ، وطلبت منه إغماض عينيه لأنني أتيت له بمفاجأة، ففعل؛ عندها أخرجت ملقطا من جيبي ونزعت تلك الشعرة اللعينة.

في اليوم التالي لتلك الحادثة أي منذ ثلاثة أيام على وجه التحديد نبتت لي تلك البقعة الخضراء، في المكان ذاته الذي انتزعت منه شعرة مينا البيضاء، تلك الشعرة التي أفقدتني عقلي، وأسدلت الستار على أي طلب من الممكن أن أطلبه منه في المستقبل.

لم يقل لي مينا (صباح الخير) مرة واحدة منذ الأحد الماضي، وأنا لم أعرف كيف أستطيع شرح له الأمر دون أن أبدو مخبولة أو معتوهة؛ لذلك كان من الأسلم لي أن أخبر الجميع أنني فقط كنت أمزح معه ليحلق ذقنه لأنه يجب عليه الحفاظ على مظهره، وأن ذلك أبسط أشكال النظافة الشخصية الخاصة بعامل البوفيه، لكنه أخذ الأمر على أعصابه كفتاة مصابة بدورتها الشهرية؛ وهذا جعل الأمور بالطبع تسوء أكثر!

من بعد ذلك ظل يتجنبني، وقد حاولت تجنبه بدوري، عدم النظر إليه من جديد.. لكن رغم أنه حلق ذقنه في اليوم التالي (يوم ظهور رقعتي) إلا أن تلك الشعرة أخذت تظهر من جديد بشكل أسرع مما توقعت، ومعها كانت رقعتي تتسع!

أفتح "الفيسبوك" للرد على بعض العملاء لأجد تحديثًا جديدًا لابنة خالي التي تعيش في أمريكا في روب تخرجها الأسود يظهر من تحته فستان أحمر قصير.

تبدو الفتاة في غاية النضج، أختار أحد الصفحات من الجانب الأيسر وأدخل محاولة إلهاء نفسي بالرد على العملاء وعدم الالتفات لتلك الحسرة التي تتسرب بداخلي.

فطوال مراهقتي كنت أخطط للذهاب إلى أمريكا، العيش هناك، أعمل وأشتري للقهوة في الصباح مع الدوناتس مثل "ساندرا بولوك" في فيلمها Miss Congeni-ality، لكن بدأت تلك الأفكار تتراجع مع بداية قراءتي في مرحلة الثانوية العامة لسلسلة روايات دار "هارلكوين للنشر" الخاصة باليافعين، مجموعة من الروايات الرومانسية. البطلة دائمًا ما تكون إنجليزية أو أمريكية وتقع في حب رجل إسباني حار الدماء أو يوناني أو إيطالي، أحيانًا تركي! لكني لم أحب تلك الروايات التي أبطالها أتراك، رغم أنني شاهدت عددًا لا بأس به من المسلسلات التركية التي كانت تعرض على قناة MBC4 في بداية ظهورها؛ تحت عناوين رقيعة مثل "نور" و"أسمر"، ومن قبلها المسلسل الإسباني الشهير "روبي".. أم لعله كان مكسيكيًا؟

في ذلك الوقت قرأت العديد من الروايات التي تدور أحداثها في اليونان حتى رغبت في الذهاب إلى هناك فقط والزواج من رجل يوناني!

لهذا بدأت دراسة اليونانية بجدية كاملة، وقد أراحني أن طباع اليونانيين لا تختلف كثيرًا عن طباع المصريين، لكني وقتها كنت مراهقة صغيرة تؤمن أن التحرش سببه الأول هو ملابس المرأة، وأن أفضل خدمة تقدمها المرأة لنفسها وللمجتمع هي أن تتزوج وتجلس في منزلها ترعى أطفالها، أو تعمل مُعلمة!

وتلك هي أكثر النكات المثيرة لضحكي في الوقت الحالي، فلم أجد من يخبرني أنه سيأتي وقت سيكون عليّ إعالة نفسي به، بل وربما إعالة عائلة بأكملها كما فعلت أمي في الخفاء طوال الوقت.

لم أكن أعرف أي شيء عن الوضع الاقتصادي لليونان، ولا مصر، وحتى لو

عرفت شيئًا لم أكن لأفهم، أو لأدرك أن اليونان في الوقت السابق ليست اختيارًا جيدًا، أما فيما يخص الرجال الوسيمين الذين تخيلتهم دومًا؛ فإن الوضع الاقتصادي يؤثر على ذلك بكل تأكيد، بالتالي لن تختلف أشكالهم كثيرًا عن المصريين.

كنت غبية، وغائبة في وسط الروايات، أحلم بالعلاقات العاطفية المتوهجة؛ لهذا مررت بعدد كبير من قصص الحب الحزينة، قصص الحب التي لم تخرج خارج أجنداتي السبع عشرة، خططت في كل واحدة منها قصصي.

هذا ما كنت أضيع به أموالي؛ الكراريس والأقلام والروايات الرخيصة.

بعد ذلك بدأ ذوقي في الأعمال الكتابية يرتقي، لكني ما أزال أحتفظ بأعداد "هارلكوين"، أقرأها من وقت لآخر.. خصوصًا تلك الأعداد القديمة، التي تدور في القصور ويكون بطلها لورد أو دوق، وأتابع أيضًا بنهم آخر إصدارات أدب اليافعين، ومسلسلات اليافعين، التي تجعلني أشعر بشيء من المرارة كلما شاهدتها.

أعود من جديد إلى ملفي الشخصي؛ وأبحث عن اسم الفتاة وأدخل صفحتها الشخصية لأرى صورها مع رفيقها الأشقر الوسيم في حفل ما.. أكتم ضحكة صغيرة مريرة؛ فأنا لم أملك يومًا رفيقًا بالمعنى الحرفيّ للكلمة، بعض المقابلات الماسخة التي انتهت بشكل عبثي في أثناء دراستي الجامعية وما بعدها.

في أيام الدراسة لم يكن هناك حفل تخرج كي يدعوني إليه أحد زملائي في الفصل.. لا في الجامعة ولا في المدرسة الثانوية؛ إذا تجنبنا أنني لم أحظ بمدرسة مشتركة بعد المرحلة الابتدائية. لم يكن هناك أنشطة تُذكر، وآخر جماعة انضممت لها كانت جماعة القصة القصيرة في الجامعة، ومن قبلها جماعة المكتبة في الثانوية العامة؛ فقط كي أهرب من بعض حصص الجيولوجيا!

لم يكن هناك أي اهتمام بأنشطة مثل الرسم، والموسيقى كعادة أي مدرسة حكومية؛ فمدرسة الرسم لم تكن تجيد الرسم من الأساس، ودائمًا ما تطلب منا

أن نرسم شيئًا عن حرب أكتوبر أو عيد الربيع، أو عيد الأم.. أي شيء عقيم غير محفز لخيال!

أما مدرس الموسيقى فقد كان أصلعًا يرتدي باروكة دائمًا، متصابي، لكنه أجاد عمله حقًا، برغم من ذلك فإن الإقبال على حصصه لم يكن كبيرًا، وبدأت الفتيات يفضلن اختيار حصص التدبير المنزلي ليقضين وقتهن في صناعة مرطبانات المربى والمخلل كي تبيعهم المعلمة لحسابها الخاص، بعض الطالبات حرصن على شراء تلك المرطبانات كي تدعهم المعلمة وشأنهم.. وقد فعلت!

أما فيما يخص حصص الموسيقى والأستاذ المتصابي فقد صُنفت تحت نطاق الأشياء المُحرمة.

كنت أسمع الكثير من الشائعات التي يرددنها حول أي فتاة ترغب في تعلم أي شيء لا يُضاف على مجموع القبول في الجامعة. خصوصًا عند حدوث أي احتكاك جسدي من أجل التعليم؛ كأن يضع الأستاذ يده فوق يد طالبة محركًا أصابعها فوق البيانو، أو مُعدلًا من وضع الكمان فوق كتفها.

في صغري أحببت البيانو، كانت لدي صورة ورقية لأصابعه، أتدرب فوقها على مقطوعة "أهواك" وأنا أغنيها بشكل صولفائي: دو فا، فا صول، فا صول، فا مي...

أحببت قراءة النوتات، وشعرت أنه ربما.. ربما أملك تلك الموهبة بداخلي، وظللت لفترة طويلة أشعر وكأنني أهدرت موهبتي؛ لكن عندما نضجت أدركت أنه لا مكان للبيانو في المنازل الفقيرة.

لقد أجدت العديد من الأشياء، تلك الأشياء التي ما تزال تجعل الحسرة تأكلني كلما شاهدت إحدى الصور، مثل تلك الصور التي لا أكف عن التقليب فيها.. لم أحضر إحدى الحفلات، لم أذهب للسينما إلا خفية، ولم أسافر قط وحدي، ولم أحظ بأقل قدر من الخصوصية.

كانت أمي تفتح كراساتي وتقرأ ما أكتبه، حقيقة لم تهتم أمي كثيرًا بالأمر طالما درجاتي لم تكن مخيبة للآمال، لكن رغم عدم تخيبي لآمالها؛ إلا أنني شعرت أن ربي خذلني بشكل ما عندما أنبتني كفتاة مسيحية!

تنبض الرسائل بلون أحمر من جديد؛ وأجد رسالة جديدة من تلك الفتاة التي تعيش في إيطاليا؛ ودون قراءتي لرسالتها الجديدة أكتب لها: مرحبًا شيرين.. لا شيء من تلك الأخبار حقيقية.. مصر بلد رائع بالتأكيد ستحبين العيش فيه.

- 6 -

أخرج من عملي فيرن هاتفي، تسألني خالتي إذا ما كنت مررت على مكتب التموين، أخبرها أني سأمر عليه يوم الأحد، فتطلب مني عدم التأخر؛ أقول لها أن لدي موعد مع طبيب الجلدية ثم أنهي المكالمة سريعًا مُفكرة في التموين الذي سوف أضطر لاصطحابه معي إلى العمل.

لا أدري من بات يعتمد على الدولة بأي شكل الآن كي تدعمه! فبعد التعويم والعديد من المصائب الاقتصادية مثل اختفاء السكر وارتفاع سعر الأرز إلى سعر جنوني بدأوا يضعون لنا عُلب جبن بيضاء غريبة مع تقليل عدد زجاجات الزيت وأكياس السكر!

هذا إذا تجنبنا أن الأرز الذي نحصل عليه يبدو كالفُتات، مُتكسر الحبات!

ومع هذا الواقع الذي أعيشه كان هناك واقع "وجهي"...

يقول طبيب الجراحة في الزيارة الثانية في عيادته الخاصة: نستطيع استئصال تلك البقعة التي نبتت في وجهك، ونحللها لنعرف ما هي، ثم نقوم بعملية التجميل، لكن في حالة ما لم نعرف ما هي فلا ضمان على أنها لن تظهر من جديد.

أُعلق دون فهم مغزى كلامه: ثم؟

- قد تضطرين للتوقيع على أوراق تُخلي مسؤولية المستشفى أمام أي جهة قانونية.

توترني كلماته، أعرف أن وجهي ليس أفضل وجه في الكون.. إنه وجه "عادي"، ببشرة "عادية"، لن أحزن إذا فقدت ساقا أو ذراعا لكن وجهي يهمني بالتأكيد؛ أعترف أني أخشى التشوه، أن أصبح مسخًا، خوفي الأكبر أن أكون النسخة المصرية من "غريغور سامسا"، وهذا حقًا يليق بي داخليًا على الأقل، أعرف أنني مسخ قبيح بشكل ما، متخاذل وكسول، أو كما تقول خالتي "مؤخرة"، كنت هكذا دائمًا وسأكون.. غير مبالية، وأضع نفسي في المقدمة.

- حسنًا بإمكاني التوقيع، لكن على الأقل هل يمكن أن أعرف تكلفة الجراحة؟

كنت أعرف منذ البداية أن ذلك الطبيب مجرد مُستغل آخر؛ لهذا لم أشعر بخيبة الأمل. فعندما اطمأن أني سوف أوقع على أي شيء يرغبه، طلب عشرة آلاف جنيه كأتعاب جراحة، وعشرين آخرين من أجل عملية التجميل!

لم أغضب، لقد توصلت إلى نظرية ما، وهي أن الناس لا يخيبون الأمل أبدًا إذا ما راهنت على جشعهم.

أي شخص لا يملك أدنى معرفة بالطب سيعلم من النظرة الأولى إلى وجهي أن هذه الرقعة هي أقرب إلى كيس دهني، ليس وكأنه سيستأصل لي جزءًا من كبدي!

أترك العيادة دون كلمة واحدة، وكل ما يجول في خاطري هو العودة آمنة إلى شقتي، لأقوم بعاداتي التي أصبحت يومية في محاولة إصلاح وجهي باستخدام الطبيعة عن طريق حمام بخار لتفتيح المسام وتنظيفها، ثم معجون الخيار والليمون الذي يقلق التهاب البشرة - إذا ما كان هذا التهابًا -، وغسيل وجهي بمياه فاترة، ثم أضع لمسة من زيت الصبار الذي يقلل حجم البثور - إذا ما اعتبرتها أيضًا بثرة -.

أو رُبما علي التفكير في محاولة استئصالها بنفسي.. ماذا سيحدث على كل حال؟

لن يسوء الأمر كثيراً إذا ظهرت من جديد، وإذا اختفت سأكون قد تجنبت إنفاق أموال عملية الاستئصال وتبقى فقط ما يخص التجميل.

أمسك بهاتفي وأفتح محرك البحث وأنا أسير في الشارع الطويل الهادئ الذي يصلني بالطريق العمومي.

أردد: يجب أن أبحث عن أسعار التجميل أولًا قبل فعل أي شيء لوجهي. اللعنة، كان ينبغي لي دراسة طب التجميل.. تبدو أمواله وفيرة حقًا.

لكني لم أكن لأذاكر.. لست من النوع المجتهد، ولا أدري كيف حصلت على هذا المجموع الغريب الذي أهلني لكلية الآداب في المقام الأول، لكن الأمر سهل التخمين فتصحيح أوراق الثانوية العامة أو أي مرحلة تعليمية يتم بشكل عشوائي، وفقًا لدرجة روقان مزاج المصحح فقط.

لم أشغل بالي بالأمر عمومًا، لم أكن ممتنة للمجموع الكبير، ولكني أيضًا لست مستاءة لأخذي درجات ليست من حقي. وهذه هي المرة الوحيدة التي لم أغتم فيها، لقد أخذت العديد من الأشياء التي لا تنتمي لي، واستأت قليلًا بسبب هذا.

في الوقت الحالي أصبحت نادرة الامتعاض؛ خصوصًا وهناك رقعة خضراء فوق وجهي لسبب أجهله. أحاول التخلص منها لكنها لا تتركني؛ على كل حال لست مستميتة في الخلاص منها؛ خصوصًا لو ما أتى ذلك الخلاص في صورة عشرة آلاف جنيه كأتعاب جراحة وعشرين آخرين كأتعاب تجميل!

أصل إلى الشارع العمومي، وأبدأ في مرحلة البحث عن أتوبيس يقلني للمنزل.

إن أكثر الأشياء المتعلقة بعملي مشقة هي "رحلة العودة"؛ أن أجلس لأكثر من ساعة في أتوبيس إذا وجدت أحد الأماكن لأجلس.

منذ فترة بدأت في اجتناب المترو بقدر استطاعتي بعدما صعدت سعر تذكرته من جنيه واحد إلى عشرة جنيهات، أما الآن فقد صرت أجتنبه تمامًا بعد تلك

الأخبار المتداولة عن قطع شعور الفتيات وتشويه أقفيتهن بالأمواس لإجبارهن على تغطيته.

لهذا فأتوبيس هيئة النقل العام هو ملاذي الأول، ثم من بعده تأتي تلك الأتوبيسات الصغيرة الخضراء التي لا أدري لأي جهة هي مملوكة، ومن مسؤول عن توظيف هؤلاء السائقين!

لا أجد أتوبيس هيئة النقل العام بسائقه الوقور، وأضطر لركوب ملاذي الثاني؛ وكالعادة، ملاذي الثاني مزدحمٌ أكثر مما يجب. وممتلئ برائحة العرق والأقدام المتعفنة، لكني متعبة جدًا لأنتظر أتوبيسًا جديدًا.

أقف في طرقة الأتوبيس، دافعة ساق أحد الرجال ليدخلها في حيز كرسيه. ثم أخرج منديلًا من حقيبتي لأمسك به الدائرة البلاستيكية الرخيصة المتدلية من سقف الأتوبيس محاولة التشبث بها وسط جنون السائق، وضغطه على المكابح كل دقيقة.

قرأت في إحدى المرات تجربة شخصية لأحد الأفراد على الفيسبوك يقول أنه يقضي من ثلاثٍ إلى أربع ساعات في الطريق من جامعته إلى منزله كل يوم، لذلك بدأ في تعلم إحدى اللغات في المواصلات، وقد نجح في إتقان الإسبانية ولغة أخرى بسبب هذه الفترة، لكني لم أستطع فعل هذا، وأقصى ما استطعت فعله في هذا الوقت هو الاستماع إلى كتب اليافعين الصوتية، والتحديق اللامتناهي.. إيقاف عقلي عن التفكير في أي شيء له مغزى؛ كأن أفكر في السحاب الذي يتركه الأتوبيس خلفه، أو أعد السيارات المارة بجواري وسائقها يستخدم هاتفه في المراسلة أو التحدث، أو ببساطة أراقب وقوع حادث مؤسف لي يؤدي بحياتي.. هذا منطقي كوني أقضي ثلاث ساعات يوميًا فوق طريق سريع عُرف بكثرة حوادثه لعيب تصميمي ما، أو خطأ هندسي.

لكن اليوم لم أستطع الاستماع إلى أحد الكتب الصوتية بسبب صوت المذياع المرتفع، وكذلك صوت سباب السائق لزملائه السائقين، وضغطه على ذراع التنبيه كل دقيقة.

يخرج السائق ذراعه من شباك الأتوبيس كي يتناول فكة مائة جنيه من سائق آخر؛ ليفاجئه السائق بإصبعه الأوسط، وتبدأ سلسلة جديدة من الشتائم.

في الوقت ذاته يخرج الرجل الجالس أمامي ساقه من جديد خارج كرسيه لأعود لأركلها، بينما من مكان ما يبدأ صراخ طفلة صغيرة.

أشعر بالمأساة، ثم أصيح بالسائق كي يتوقف على أي جانب.

يتوقف السائق فأترجل من الأتوبيس الذي لا ينتظرني حتى أضع قدمي فوق الأرض ليتحرك بسرعة عالية تكاد تطيح بي فوق الأرض.

أتماسك محاولة التقاط أنفاسي لكن تلك الأنفاس تأتي مليئة بالعوادم، بينما تحيط بي أصوات أبواق السيارات.

أشير لأحد "التاكسيات" لكنه لا يوافق على توصيلي إلى الشرابية، أوقف تاكسي آخر فيأبى توصيلي دون مقاولته لأن عداده لا يعمل!

التاكسي الخامس يقبل نقلي، رجل عجوز لا أشتبه في عبثه بعداد الأجرة.

أركب التاكسي وأسند رأسي للخلف لأجد السائق أغلق نوافذ التاكسي وشغل مُكيف الهواء من تلقاء نفسه!

ثم يمد يده بعلبة صغيرة مملوءة بالحلوى فأتناول إحداها، أضعها بداخل كفي وأمعن في النظر إليها، وقد بدأت تنبعث من المذياع صوت خفيف لإحدى أغنيات محمد فوزي...

تنهمر دموعي ولا أتمكن من إيقافها.

- 7 -

البارحة بعد عودتي إلى منزلي أخيراً حمَّلت فيلمًا وثائقيًّا يتحدث عن سمك القد، ثم انشغلت -في اليومين التاليين- بتحميل عددٍ من الأفلام الوثائقية منتهزة فرصة عدم انقطاع الإنترنت، لهذا لم أنل قدرًا كافيًا من النوم قبل الذهاب إلى العمل اليوم، وأحظى بالمقابلة الصباحية القصيرة مع فريق العمل لأعرف المهام الجديدة الخاصة بالقسم.

تنتهي المقابلة فأضع سماعتي الهاتف في أذنيّ ثم مستمعة إلى أغنية إيطالية قديمة تُدعى "إيتاليانو فيرو"، ثم أذهب إلى المطبخ كي أصنع كوبًا من القهوة التي شعرت بالحاجة الماسة إليها، إنه الكوب الوحيد الذي أسمح لنفسي بتناوله.. كوب واحد من القهوة قبل الساعة الثالثة عصرًا؛ لهذا ابتغيت أن يصبح هذا الكوب مميزًا، فأنا لا أملك ما يكفي لشراء ماكينة لصنع القهوة، وحتى لو تمكنت من شرائها فلن أتركها في العمل ليفسدها عامل المطبخ كما أفسد عددًا من الغلايات من قبل، وجهازين لصنع رغوة الحليب؛ ولهذا السبب على وجه التحديد اشتريت علبة من القهوة الفورية الإيطالية، متغاضية عن سعرها لكونها ستكفيني شهرًا كاملًا.

أتناول علبة قهوتي من فوق أحد الأرفف كما أضعها دومًا؛ وما أن أرفعها من مكانها حتى تضربني خفتها التي وازت خفة روحي الموشكة على التلاشي. بينما يسقط قلبي دخل حفرة سوداء عميقة.

بيدٍ مرتجفة أخلع غطاء العلبة الأحمر لأجدها شبه فارغة!

خمسة وتسعون جرامًا من قهوة "إيلي" الإيطالية سريعة التحضير تبخرت في الهواء!.. مئة وستون جنيهًا تبخرت في الهواء!

أنا لا أشعر بالغضب، الأمر أقرب إلى الذهول، الأزمة القلبية.. الجلطة.. الشلل النصفي.. السكتة الدماغية.

لقد كنت مقتصدة بما فيه الكفاية الشهر الماضي كي أحظى بتلك العلبة الفضية الجميلة، ونكهة القهوة المميزة التي كافأت نفسي بها. أشرب كوبًا كل يومين! وآخذها معي إلى المنزل في عطلة نهاية الأسبوع. لكني نسيت أخذها يوم الخميس الماضي فقط!

هذه العلبة التي أحافظ عليها كما أحافظ على قلبي هناك شخص ما في هذا المكان.. شخص ما وضع يده القذرة عليها، متجاهلًا الورقة الملصوقة فوق غطائها، والتي كُتب فوقها أنها ملكي.. ثم ارتكب تلك الفعلة الشنعاء ظانًا أنه سوف يفلت بها!.. بالطبع ظن أنه سيفلت بها؛ فأنا لم أقل شيئًا عندما شربوا علبة شاي أحمد بالخوخ الخاصة بي، رغم ندرتها إلا أنني لم أستطع قول أي شيء! واشتريت عُلبة من شاي "ديلما".. وشربوها أيضًا!.. كذلك مرطبان العسل الخاص بتحلية بعض المشروبات، وبدلًا من التحقيق في الأمر؛ فقط قبلت بالأمر الواقع وتوقفت عن شراء العسل وتحلية مشروباتي كأبله البُله!.. لكن هذا لن يتكرر.

فـ"أنيس" اليوم مختلفة، مخبولة ذات رقعة خضراء في وجهها.. ومن الأفضل للجميع أن يتجنبونها ويتجنبون أشياءها.

أتجه نحو مكتبي بهدوء، أسحب حاسوبي المحمول، ثم أنتقل كي أجلس في المطبخ، أتابع عملي، مُراقبة الشخص الذي سيجرؤ على الاقتراب من ممتلكاتي.

لم يكن المطبخ يسع أكثر من خمسة أشخاص، له بابان، ونافذتان، بالقرب من

إحدى النافذتين تقع طاولة صغيرة، وضع فوقها منفضة سجائر وأمامها مقعدين صغيرين. إنه أحد الأماكن التي سُمح بالتدخين بها داخل الشركة، أو لعله لم يُسمح؛ إنه فقط مكان له نافذة تُفتح يستطيعون التدخين به خلسة دون أن يشعر أحد العاملين داخل المكاتب بالدخان.

أحد المقعدين يلتصق مسنده بالجدار، وإلى يمينه وضع البراد، مشكلًا مخبئًا صغيراً مثاليًّا لعامل المطبخ المحب للنوم؛ لكني أستولى عليه.

ظل المكان لفترة هادئًا نسبيًّا، فقط بعض الأشخاص يأتون يصنعون شايهم وقهوتهم ثم يذهبون.

لم يلق أحدهم علي التحية، ربما لكوني أتظاهر بعدم رؤيتهم واضعة سماعتي الهاتف في أذني، محدقة إلى شاشة حاسوبي.

لم أنظر إلى أحد حقًا حتى أتت ماريا الآن، لتجلس فوق الكرسي المجاور لي، ثم تُشعل سيجارتها.

تناولني العلبة؛ لكنني أشير إليها بكوني لا أدخن.

تُهمهم بشيء ما على غرار "كما ترغبين".

حتى الآن، وطوال تلك السنوات التي عملت بها في هذا المكان ماريا كانت الشخص الوحيد الذي شعرت في وجوده بالراحة.

إنها تصغرني بتسع سنوات تقريبًا، شديدة النحول، طويلة، ولديها عينان واسعتان، وبشرة شاحبة، وشعر قصته مؤخرًا بخصلات سوداء ملفوفة تحيط بوجهها كتصفيفات الآسيويات في الدرامات القديمة. لم يكن شعوري بالألفة في وجودها راجعًا لشبه ما بيننا؛ بل لكوني لا أشعر بكوني غريبة الأطوار الوحيدة في المكان.

أعرف أنني مختلفة بشكل ما، بطريقتي الخاصة، لكني لم أظن يومًا أني غريبة الأطوار حتى سمعتهم يتهامسون حولي في العمل، لكني تجاهلت الأمر، ثم أتت ماريا العام الماضي للعمل هنا، علمت وقتها أن لا غبار عليّ، أنا بخير تمامًا مقارنة بها.

تُمسك ماريا بهاتفها لتُقلب بداخله شاتمة ثم تنظر لي متحدثة بعربية ركيكة مختلطة بالإنجليزية: تلك الفتاة الجديدة التي أتوا بها للعمل هنا تسخر مني! لكوني لا أجيد العربية!

أسألها بقليل من الفضول: ألا تجيدين قراءة العربية؟

تهز كتفيها: أعرف القليل.. أعني.. أعرف الحروف، أعرف اسمي حين أراه، لكني لا أستطيع الكتابة بها، أستطيع القراءة ببطء شديد.. لقد عشت حياتي في أيرلندا، ولولا ابن الكلب والدي لكنت الآن ما أزال أعيش هناك، لكنه خشي أن أفسد، أصاحب أحدهم.. أترك له المنزل، فأعادني إلى مصر.. وخمني ماذا حدث؟.. لقد تركت المنزل وصاحبت أحدهم بالفعل!

أكتم ضحكة ساخرة ثم أسألها: هل تحبين أيرلندا؟

تسحب نفسًا من سيجارتها وتجيبني: لا.. أحب زوجة أبي في الحقيقة، أعتبرها أمي.. أذا عدت في أحد الأيام سأعود لأجلها فقط، أما بالنسبة لي فأنا أفضل البقاء هنا.. القاهرة تشعرني بالراحة.. ألا تحبين القاهرة؟

أشرد قليلًا مفكرة في سؤالها.. أنا في الحقيقة أحب القاهرة.. أحب المنطقة الشعبية التي أسكن فيها، أتقبل الضوضاء التي تمتص طاقتي.. حتى وإن استولت على سلامي النفسي.

لكني مؤخرًا بدأت اختبار أحد المشاعر الجديدة. ليس مجرد شعور معقد؛ بل أكثر المشاعر تعقيدًا. شعورٌ متربعٌ فوق عرش التعقيد، حاولت فيما سبق اختزاله في كلمة واحدة فقط أو كلمتين؛ لكني لم أستطع.

ليس إحساسًا بالفجيعة، أو البؤس السيزيفيّ. أنا أبدو بالضبط كشخص بالغ، مهندم، سقط في حفرة عميقة. تلك الحفرة لم تكن حفرة عادية؛ بل حفرة موحلة، مليئة بالطين، والزفت. لا طريقة للخروج منها، وصوت صرخات الاستغاثة عالق في حنجرتي. ثم فجأة يرسل القدر شخصًا ليعبر بجوار تلك الحفرة. يتوقف عندها. ينظر بداخلها.. ثم يفتح سحاب سرواله، ويخرج عضوه ويبول! هكذا...

أنا شخص جالس في حفرة موحلة. لا يستطيع الخروج منها، وهناك شخص ما يبول من السماء فوق رأسي.

وكلما سألني أحدهم هل أنت بخير؟ كيف كان يومك؟ وددت لو صفعته مئة صفعة فوق وجهه. لكني أبتلع كل هذا، وأبتسم.. لكن اليوم.. اليوم لن أواجه العالم بابتسامة، اليوم أنا أجلس مترقبة ذلك الوغد الذي يشرب قهوتي.

تقف ماريا ضاغطة فوق زر تشغيل الغلاية ثم تعود لتجلس أمامي من جديد سائلة: هل قضيت ليلة صعبة؟

يخرجني سؤالها الجديد من دوامة أفكاري.

أجيبها بنبرات متزنة، وأنا أخلع سماعتيّ أذني: لقد سهرت لأشاهد فيلمًا شيقًا لهذا لم أنم جيدًا.

- ما اسمه؟

- لا أذكر حقًا، إنه فيلمًا وثائقيًا.

- هذا جيد أحب الأفلام الوثائقية، شاهدت أحدها مؤخرًا عن صناعة الموضة السريعة.. جعلني أبكي.

- لقد شاهدت فيلمًا عن سمك القد، وكونه يتواصل في البحار التابعة للدول

بلغات مختلفة، بل ولكنات مختلفة.. الأمر مُحير للغاية، تخيلي أن يملك سمك البلطي المصري لغة مخالفة للغة سمك البلطي الموزمبيقي! بل وذلك السمك القاهري رُبما يتحدث بلهجة مختلفة عن السمك البلطي في المحافظات الأخرى!

تنظر لي نظرة مطولة ثم تقول: أتعلمين.. كل تلك الأشياء التي في رأسك سوف تختفي إذا فقط دخنت بعض الحشيش.

تقف من جديد متجهة إلى غلاية المياه التي توقفت للتو، ثم تتناول كوبًا من فوق أحد الأرفف، تضعه وتضع فيه ملعقتين من السكر، تصب بعض المياه في الكوب، ثم تمسك بعلبة قهوتي، تفتحها وتضع منها ملعقة كبيرة وتُقلب محتوى الكوب!

تلتفت نحوي مُمسكة بغطاء القهوة سائلة: أيمكنك قراءة المكتوب فوق ذلك الغطاء؟

أُنزل حاسوبي عن ساقي وأضعه فوق الطاولة الصغيرة، ثم أقترب منها ساحبة منها غطاء العُلبة بيسراي، وبيميني أمسك بكوب القهوة الموضوع خلفها فوق طاولة المطبخ وأرشف جرعة كبيرة من القهوة الحارة التي تجعل لساني يفقد الإحساس إثر الوجع الشديد، ثم أجيبها: تقول أنك مدينة لي بثمن علبة قهوة جديدة.

- 8 -

تفسير طبيعة عملي في العادة أمر في غاية الصعوبة لمن لا يعمل في مجال الدعاية والإعلان؛ وخصوصا أفراد العائلة الذين يأتون لزيارة خالتي من آن لآخر.

ردود أفعال تختلف حسب عمر الشخص الذي أجيبه؛ فإن كان أحد الأطفال سيجد مهنتي هي أفضل مهنة على الإطلاق؛ فمن منهم لا يرغب في تلقي الأموال عن طريق كتابة منشورات لصفحات الفيسبوك وحسابات انستغرام وتويتر.. إنه النعيم!

أما بالنسبة لكبار السن فرد فعلهم دائمًا واحد؛ نظرة تعني: "هل أنت جادة؟! هل هذه بالفعل وظيفة!"

ثم يتلوها السؤال السرمدي: ماذا ستفعلين عندما يحدث خلل ما وتُغلق مواقع التواصل الاجتماعي؟ ماذا ستفعلين في وظيفة تعتمد على الإنترنت؟

عندها أجيبهم بمنتهى الجدية: في الحقيقة كنت أفكر في زراعة جزءا من الشقة، أظن أن باستطاعتي زراعته ببعض الحشيش.

يظنونني أهرج، لكني فكرت في الأمر بجدية؛ حتى قبل هاجس غلق موقع الفيسبوك. فراتبي الحالي لا يستطيع حتى مواكبة جنون الأسعار، ورفع الدعم التدريجي عن كل شيء.

لكني صرفت النظر عن الأمر، دائمًا ما أفكر في الكثير من الأشياء غير القانونية ثم أتراجع عنها.

لا يعد ذلك ذنبًا أليس كذلك؟

لكن وإن كنت قد استطعت إخراج فكرة زراعة الشقة بالحشيش؛ إلا أن هناك الكثير من الأفكار المخبولة تأتيني طوال الوقت ودون مقدمات.

مثل تلك الأفكار التي يمليها عليّ عقلي في العمل، حينما أستمع إلى أحدهم يتحدث لوقت طويل.

يبدأ رأسي في إعطاء أوامر مخزية كأن: اضربي رأسها.. ماذا ستفعل زميلة عملك لو سكبت كوب الشاي هذا فوق رأسها؟..

ماذا سيحدث لو فقط خلعت سروالك وبلت أرضًا الآن؟

ماذا سيحدث لو بلت أرضًا ثم ضربت زميلتك الثرثارة تلك ثم سحبتها فوق بركة البول هذه؟

ماذا سيحدث لو سحبت سروال أحد زملائك؟

لو وقفت فقط في وسط أحد الاجتماعات ثم صرخت فيهم جميعًا صائحة بكل السبابات التي تعرفينها، ثم فتحت الشباك الذي يقبع خلف مكتبك وقفزت منه؟

ماذا سيحدث لو فقط قفزت منه؟ الآن؟ لو فقط قفزت الآن.. هيا.. هيا افعليها الآن.. لماذا يترك أحدهم كوب قهوته في المطبخ هكذا؟ هل أصب فيه بعضًا من الصابون السائل؟ ماذا سيحدث لو التقطتني الكاميرا المعلقة بالقرب من باب المطبخ؟

لماذا يضعون كاميرا بالقرب من باب المطبخ وليس في المطبخ؟ لماذا هناك كاميرا معلقة فوق باب الحمام الرجالي؟ لماذا يوجد حمامٌ بجوار المطبخ من الأساس؟

هل أبصق في الطعام؟ في أكواب القهوة؟

لماذا يعمل رأسي بهذا الشكل المخزي؟.. تلك الأفكار مخزية بالفعل.

ماذا سيحدث لو وضعت المكواة على وجهك.. لو وضعت وجهي فوق طاولة المكواة ووضعت المكواة في الناحية الأخرى؟

ماذا سيحدث لو أشعلت النار في نفسي؟

لو تناولت كل المسكنات في المنزل؟

ماذا سيحدث لكليتي إذا واظبت على تناول المسكنات ثلاث مرات يوميًا؟

أحيانًا أبحث عن إجابات تلك الأسئلة على الإنترنت.

لقد قضيت نصف ساعة منذ وصولي إلى عملي في القراءة عن خيار البحر! وذلك بسبب رؤيتي لقطة تقضم قطعة خيار وأنا في طريقي إلى العمل، ثم بدأت في البحث عن أسعار عمليات تجميل الوجه، لأفاجأ بالنتائج المزرية في مصر والأسعار الخزعبلية!.. لماذا تبدو جميع الوجوه بعد عمليات التجميل مثل "علا غانم"؟.. الكثير من الإعلانات المرعبة أو التي تحتوي على صور "قبل وبعد" لأجانب أو آسيويات.

لهذا كان علي البحث عن أفضل الدول التي أستطيع فعل هذا بها دون أن أفقد وجهي وأموالي معًا.

وها أنا الآن.. جالسة أفتش عن أفضل الدول في عمليات التجميل.. يبدو أنني سوف أسحب الكثير من أموال التقاعد التي لا أملكها في سبيل تلك العملية.

لم يكن هناك الكثير ليقال في الاجتماع الصباحي للشركة الذي أحضره الآن، والذي بدأ منذ أكثر من نصف ساعة.. إنه مديرنا صاحب الشركة من جديد يجمعنا للحديث حول الخطط المستقبلية للشركة، وأشياء أخرى لن تفيدني بشيء.. فينوه عن ترك موظف ما وتعيين آخر.

لم أهتم بمعظم ما يقوله، لكن لسبب ما تلك الجملة التي قالها الآن أخرجتني عن تركيزي في بحثي عن عمليات التجميل.

- من يرغب بأن يصبح رشيقًا عليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا، يشترك في إحدى الصالات الرياضية ويذهب إلى هناك بشكل دوري.

أجد نفسي أفكر: "هذا ليس صحيحًا؛ فالتمرينات الرياضية تؤثر تأثيرًا بسيطًا على إنقاص الوزن.. حوالي من ٢٠ إلى ٤٠٪ فقط. إذا كان أحدهم يرغب فعلًا في إنقاص وزنه فعليه اتباع نظام غذائي صحي، إذا ظل يأكل الكميات ذاتها ويتمرن كل يوم لن يفقد الوزن على الأرجح".

يسود الصمت من حولي بشكل مثير للريبة يجلعني أرفع عيني عن هاتفي الذي أخبئه تحت الطاولة التي أجلس أمامها لأجد جميع الأنظار مسلطة نحوي، عندها أدرك أنني قد تفوهت بتلك الجملة بصوتٍ عالٍ.

لم أكن أعرف ما موضوع الاجتماع، لكن مهما كان موضوعه فهو بالتأكيد لم يكن بحاجة إلى نصيحة تخص اللياقة!

أحاطت بي نظراته المدهوشة أو المتعجبة من وجودي؛ لعله يتساءل ماذا تفعل هذه المرأة هنا بالضبط؟! لماذا تحضر هذا الاجتماع؟!

لم تكن لدي إجابة في الحقيقة غير أني وجدت تلك المقابلة في نتيجة جوجل الخاصة ببريدي الإلكتروني فحرصت على حضورها متوقعة أن تكون خاصة بتسريح بعض الموظفين، لكني وجدت أن البعض يستقيل بنفسه في العموم من وقت لآخر.

يُنهي المدير الاجتماع بجمل مقتضبة، فأترك مكتبه ذاهبة إلى المطبخ لعمل كوبا من الشاي الأخضر، ينصرف مينا عن المطبخ ما أن يراني أدخله، أحضر كوب شايي، ثم أذهب إلى الشرفة للجلوس قليلًا مراقبة مبنى السفارة السويدية المقابل لها.

تدخل ماريا الشرفة بدورها مُشعلة سيجارتها، وفي يدها زجاجة الـ"كوفي شيك" المثلجة بينما تتجنب النظر إلي تمامًا، وبعدها تدخل سوزان، وتبدآن التحاور حول

ما حدث في الاجتماع؛ بينما يصل إلى سمعي أن هناك شخص ما جديد سوف يأتي إلى العمل بالشركة.

تتأفف سوزان وتخبر ماريا أنها قدمت استقالتها، وأنها سوف تفتح شركتها الخاصة، بينما لا تعطي ماريا أي رد فعل.

ستكون تلك المرة العاشرة لـسوزان التي تُقدم فيها استقالتها ثم تُرفض.

في الأسبوع الماضي قبل شجارنا أخبرتني أنها فتحت شركتها الخاصة؛ وها هي أمامي!.. ما تزال هنا، أتساءل حول ما إذا كانت تخبرني بهذا كي تعرف إذا كنت واشية ما؟.. في الحقيقة أنا لا أتحدث كثيرًا فيما يخص الآخرين، ففي العمل نحن لا ندري من أين يأتي الخازوق.

تتوجه لي سوزان بالكلام وكأنها نست شجارنا: ما رأيك فيما يحدث؟ لقد استقال ثلاثة أفراد من قسم التصميم دفعة واحدة بسبب استقالة رئيسهم المباشر.

أتردد قليلًا في إجابتها؛ فأنا لا أستطيع فهم أولئك الأشخاص الذين لا يملكون وظائف أخرى ولا مخطط آخر عند استقالتهم.. لا أتفهم لماذا يرغب أحدهم في ترك العمل والبقاء دون مال في وسط تلك الكوارث الاقتصادية.

أجيبها ببطء: إنها مشكلة لا أستطيع استيعابها حقًا.. "الشللية" أحد أسوأ الأشياء في مجال الأعمال.

لم أرغب في قول المزيد؛ لأن ذلك المزيد سوف يُشعرها بالإهانة؛ خصوصًا ما يخص الصداقات التي تتعدى إطار العمل، والخروجات اليومية، والتدخين كل نصف ساعة في الشرفة، وتناول الإفطار سويًا في الحادية عشرة، ثم الغداء في الثالثة أو الرابعة.

وتضييع الكثير والكثير من ساعات العمل دون إنجاز أي شيء، وفي النهاية يضع بعضهم فوق عاتقي أكثر مما ينبغي، أكثر مما أتحمل، أكثر من قدرة تحمل أي شخص؛ وذلك لكوني في العادة لا أشتكي، مهما بلغ الحِمل لا أشتكي أبدًا الحقيقة.

وفوق كل ذلك الاستهتار، والبراح الوظيفي والرواتب الجيدة يستقيل بعضهم.. هكذا.. لكني لست مكانهم ولا أستطيع تفهمهم، كما أنني أجد صعوبة كبيرة في التنقل من وظيفة لأخرى، أكره التغيير، لهذا لا أتخذ العديد من القرارات بحياتي، بل لم أتخذ قرارا بحياتي من قبل.

لم أستطع ترك أي شيء في حياتي من قبل، حتى في المرات القليلة التي قابلت فيها بعض الرجال لم يكن الأمر يعود إلي في عدم تكرار تلك المقابلة، كان دائمًا هم...

هناك شيء بي يُنفر الرجال مني، أدرك هذا.. لا أدري ما السبب.. رائحة نفسي؟ لم يخبرني أحدهم أنها سيئة من قبل.. ماذا إذن؟ طريقة ارتدائي للملابس؟ لكوني لا أذهب كل يوم إلى العمل في غاية الأناقة؟

أبدل بين بنطالين من الجينز (أسود وأزرق داكن) وعدد من التيشيرتات الواسعة، و٥ قمصان بألوان مختلفة كل لون منهم يناسب يومًا مختلفًا من أيام العمل. شعري أعقصه كله دائمًا في شكل كعكة فوق رأسي، وللمقابلات الهامة لدي تنورتين بلون أخضر داكن وأسود وبلوزة سوداء طُبق فوقها عدة أشكال لحشرات.. ليست فراشات، لكنها تبدو جيدة عند ارتدائها، وأخرى بلون خليط من الوردي والبرتقالي.

مع ارتدائي نظارة طبية كبيرة تُشبه عيون القطط حصلت عليها من فوق أحد أرصفة العتبة، وهمت بها لكونها تشبه النظارات التي ترتديها الفتيات في الأفلام الكلاسيكية؟

لم تعاود سوزان الكلام إليّ من جديد، وعادت لحديثها مع ماريا؛ مما جعلني

أتعجل في إنهاء شايي نادمة لأني لم آخذ هاتفي وسماعته معي كي أتجنب مثل ذلك الحوار الغريب.

وقفت ممسكة الكوب في يدي وما أن هممت بالخروج حتى قاطعتني سوزان بسؤالها: صحيح.. لماذا كنتِ شاردة في الاجتماع الصباحي؟

ها هي تعود لفضولها وحشريتها، ودون محاولة للمراوغة أجبتها ببساطة: كنت أبحث عن أفضل وأرخص الدول التي من الممكن أن أجري فيها جراحة تجميل.

لم أنتظر ردها غالقة الباب خلفي.

تلك المحادثة ربما تكون أطول محادثة أجريتها في المكتب طوال الأسبوع.

كنت وحيدة طوال الوقت في المكتب.. وحيدة وهذا شيء جيد بالنسبة لي. أستطيع وضع سماعات الأذن، أستمع إلى الكتب الصوتية، أو فريق "بوني إم" أو "كانسس" أو "آبا".. إلى أغنيات لا يسمعها أحد أو لم يعد يسمعها أحد دون الحاجة لمشاركتها مع أحد، دون أن يسخر منها أحد كما يفعل كل من يشغل موسيقاه بصوتٍ عالٍ.

في الماضي كنت أكثر تأثرًا بالوحدة؛ تغذت عليّ.. التهمتني التهامًا. إن الشعور بالوحدة يشبه إلى حدٍ كبير الشعور بالجوع، وكنت في الماضي أحشر في فمي كل أنواع الطعام كي أقتلها.. أو أقتلني.. لكني لم أعد أفعل هذا.

كلما مر الوقت تغير شيء ما بداخلي، في منتصف الثلاثينات بدأت أشعر بأنني شخصٌ آخر، ولم تعد الوحدة تطاردني.

قتلتها بشكل ما.. بصوت التلفاز المستمر، بالتحديق لنصف ساعة كل صباح إلى بث مباشر من إشارة شيبويا في العاصمة طوكيو.

رؤية الناس يروحون ويجيئون، دون توقف، ويركضون كي يلحقون بعملهم.. وكلما فعلت ازداد شعوري بكوني لست هنا.. أنا مجرد انعكاس ما.. لشيء ما ليس

موجودًا حقًا، وإن كان موجودًا فهو ليس هنا بالتأكيد.. ذلك الشيء سيكون في تلك الإشارة البعيدة.

أذهب إلى المطبخ لأضع كوبي، ثم أعود إلى مكتبي كي أباشر عملي.

بعد مرور حوالي نصف ساعة أجد عامل الاستقبال يُناديني كي أذهب إلى مكتب المدير!

يدق قلبي بعنف! كنت أعرف أنه سوف يطردني بسبب تلك المقاطعة التي جعلته يبدو جاهلًا. أو لعله بسبب استخدامي للهاتف أثناء الاجتماع؟

أفكر: هل أخبرته ماريا عن اشتياطي بسبب القهوة؟ أم أعلمته سوزان بشأن بحثي عن عمليات التجميل نكاية في بسبب ما فعلته مع أخيها؟.. تبًا لي...

أبتلع فزعي، ثم أضبط نظارتي فوق أنفي، وأقف من مكاني تاركة هاتفي فوق المكتب كي لا أغامر بكشف ارتعاشة يدي.

أتوقف أمام باب مكتبه ثم أطرق ثلاث طرقات بسيطة وأدلف إلى الداخل.

يشير لي بالجلوس فأجلس أمامه فوق أحد المقاعد.. أمامه مباشرة لدرجة تجعلني أرغب بالاختفاء.

يقول لي دون أن يرفع نظره عن حاسوبه: لقد أخبرتني سوزان منذ قليل أنكِ كنتِ منشغلة بالبحث عن أرخص الدول المتخصصة في عمليات التجميل.

أبتلع ريقي بصعوبة.. بالتأكيد إنها الوشاية!.. ماذا سيحدث لي الآن!

يُدير لي حاسوبه فاتحًا صفحة ما خاصة بإحدى المستشفيات وهو يقول بجدية شديدة: لقد قمت بهذا البحث من قبل من أجل زراعة الشعر؛ تركيا هي الأفضل من حيث الأسعار سواء الطيران أو الخدمة، وهي أجودها أيضًا.. كنت أفكر في تايلاند ولكن التعويم جعل سعر التذكرة الواحدة في حدود سبعة عشر ألف جنيه! تصوري؟!

- 9 -

لم يكن هناك شيء في جيراني يدعوني لوصلهم. لقد رأيت العديد من الجيران يروحون ويجيئون، يطلقون أو يموتون.. مثل "سارة".. تلك المرأة في الشقة المقابلة. تزوجت منذ عدة سنوات، كان زوجها يضربها كل يوم، أسمعه يتحدث إلى أصدقائه قائلًا أنه يجعلها تظل واقفة طوال الليل عارية في الشتاء تنزف إثر ضربه لها، كل هذا لأنه شعر بالخديعة.. زوجته كانت مصابة بشيء يشبه الـ(تبول لاإرادي).. كلما تعرضت لضغط شديد كانت تبول دون وعي حسب قوله.

لم يترك أحدًا دون إخباره بهذا.. كان يقف في البلكونة ويتحدث إلى جيرانه بصوتٍ عالٍ.. تلك المرأة تعرضت لمذلة كبيرة قبل طلاقها. ربما لم تتطلق؛ هي فقط لم تعد موجودة، لكنها لم تمت أيضًا حسب ما أذكر.

بعدما اختفت "سارة" شعرت برغبة في الانتقام من ذلك الرجل، لكن تلك الرغبات التي تأتيني تتبخر دائمًا في لحظات، وقتها أعلل نفسي بأن العدالة الإلهية ستأتي بكل تأكيد، وليس علي أخذها بيدي؛ الأمر أشبه بتلك المسرحيات اليونانية القديمة، التي غالبًا ما يتنزل فيها الإله ليحل كل شيء أفسده البشر.. وهذا ما أؤمن به أنه في النهاية بالتأكيد سوف يحل الله كل شيء، وطالما الأمور مستمرة إذن هذه ليست النهاية.

هذا إذا تجنبنا أنني لا أستطيع خوض أي شجار، عندما أرى بعض الأشياء التي

تغيظني تهرب الكلمات من رأسي.. لا أستطيع أن أقف لنفسي أو لأي شخص.. وعندما أضع نفسي في أحد المواقف المحرجة أنهي الأمر بالسخرية من الطرف الآخر أو من نفسي.. أعلم أنه قد يجد بعض الأشخاص طريقتي في التعامل مع الأمور مثالية؛ لكنني لم أرها كذلك قط، لم أكرهها أيضًا.. إنه مجرد شعور ما بتقبلي لذاتي، وهذا الشعور يدهشني أحيانًا.. إنه مريح وعادي، ككوب شاي بحليب وبجواره كيس من بسكويت "نواعم".. تقليدي ومُكرر ككل صباحات الطفولة.

لم يحاول "جارنا" ذلك التواصل معنا، ولا حتى بإلقاء تحية الصباح أو المساء؛ إلا عندما رأى خالتي منذ قليل تُعلق السعفة التي اشتريتها لها مع صورة للصليب فوق شُرَّاعة باب شقتنا كي تُخفي بها شرخًا في زجاجها ويبدو أن رؤيته للصليب قد لدغته لدغًا، واكتشف فجأة أن لديه جيرانٌ مسيحيون!

فتملكته الجسارة وأتته الجرأة كي يأتي إلى منزلنا الآن طارقًا بابنًا وحاملًا هدية لخالتي.. كتابًا يدعى "هل المسيح هو الله؟ وجواب الإنجيل على ذلك" كهدية!

أراقب خالتي وهي تُمسك الكتاب وتضعه فوق منضدة غرفة الصالون. بينما يجلس كالحلوف يشرب شايه متحدثًا عن أشياء لا شأن لنا بها.

كنت قد عُدت إلى المنزل للتو، بينما تصاعد شعوري بالضيق لعدم تمكني من تبديل ثيابي أو خلع حذائي والجلوس بشكل مريح.

أحاول التأفف مرة تلو الأخرى؛ لكنه لا يشعر بالضيق.. يقعد فقط أمامنا يرشف شايه على مهلٍ.

ما أن ينهي شايه حتى يخرج من الباب مودعًا خالتي وهو يقول: أود مناقشتك في الكتاب عندما تنتهي منه.

تجيبه خالتي: وأنا أيضًا أريد مناقشتك في كتاب ما.. انتظرني قليلًا، لدي كتاب دفاعيات.

لم يبد على الرجل الفهم.. فتتابع خالتي متمتمة: لا أدري إن كنت ستفهمه أم لا، لقد أخبرتني زوجتك أنك لم تُكمل تعليمك.. هل اكتفيت بالدبلوم؟.. هل تريدني أن ألحقك بأحد الدروس المسائية؟

يرتبك الرجل أكثر وأكثر ثم يقول شيئًا غير مفهوم وهو ينسحب.

تدخل خالتي مُغلقة الباب فأقول لها: دفاعيات؟.. حقًا!

- لقد رأيت حلقة عظيمة على قناة الفادي اليوم.

- وترغبين في إلحاقه بأحد الدروس المسائية؟ ماذا ستفعلين إذا حاول إخبار أحدهم أننا نحاول تبشيره الآن!

- إنه غبي وجبان.

- كنت أنتظر انفجارك في وجهه.

تردد إحدى الآيات قائلة: الرجل الغضوب يُهَيِّج الخصومة، وبطيء الغضب يُسَكِّن الخِصَام.

- وهل هكذا تُسكنين الخصام؟!

لا تجيبني وتعود لتلفازها. أتساءل بداخلي حول ما إذا كانت تشعر بالضآلة، هي تشعر بوحدة شديدة هذا لا شك فيه، كانت خالتي مثال للتعاسة التي تمشي على قدمين، ووالدي هو السبب في ذلك.

كنت أعلم أن الوحدة تأكلها، خصوصًا لأن "سماح" لم تعد تتردد عليها.

رغم أن "سماح" تكبرني فقط بعشر سنوات إلا أنها انسجمت جيدًا مع خالتي.

مسكينة "سماح".. متزوجة من مقاول فظ دائم الصياح، لا يستطيع أن يحضر لنفسه كوبًا من الماء كالمشلول، دائمًا ما يضرب ابنته الكبرى.

كنت أسمع بكاءها وصراخها وهي تقول: لا يا بابا.. بالله عليك يا بابا.. والنبي يا بابا.

لكن الله والنبي لم ينقذاها، كذلك رقم الشرطة الذي اتصلت به مرة لأخبره بما يحدث وأجابني ضابط الاستقبال بأن "أكون في حالي".. وقد اتبعت تلك النصيحة منذ ذلك الوقت بقيت في حالي تمامًا.

كانت "سماح" تأتي إلى منزلنا في كل مرة تصل إلى أنفها رائحة قُرص العذراء الذي تخبزه خالتي. تحضر قهوتها معها، وتجلس مع خالتي تشاهدان أحد الأفلام الهندية.

تحكي دائمًا عن ابنتها الكُبرى غريبة الاسم، كيف أنها صعبة المراس.. مراهقة غريبة.. حتى وقعت ابنتها في حب شابٍ مسيحيّ، ومنعها زوجها من الدخول إلى منزلنا وكأن جميع المسيحيين أسرة واحدة ويعرفون بعضهم البعض!

ورغم راحتي الناتجة عن انقطاع تلك الزيارات إلا أن خالتي فقدت جارة تؤنس وحدتها؛ فـ"سماح" لم تكسر لزوجها كلمة ولم تأت إلى منزلنا مرة أخرى، كما أنها انقطعت عن إلقاء السلام علينا، حتى بعدما ماتت ابنتها.

أدخل إلى الحمام لتنظيف بشرتي لأجد أن البقعة الخضراء صارت خطًا رأسيًا!

- أحا!

تسمعني خالتي أصرخ في الحمام، فتصيح من فوق كنبتها: لا تصرخي في الحمام، سيتلبسك عفريتًا.

أخرج من الحمام وعيناي مليئتان بالدموع، أقف أمامها لأريها وجهي قائلة بهستيرية: ماذا يحدث لي!.. ماذا يحدث لي!.. هل سيتحول لوني بالكامل للأخضر! هل سأصبح حشرة "كافكا"!

تسألني خالتي: "كافكا" من؟

لا أجيبها مسترسلة في هستيريتي: سوف أتحول إلى مسخ أخضر.. سوف أفقد وظيفتي وأتضور جوعًا.

تهمس خالتي: لقد جُننت تماما!

أتابع صياحي: ماذا أفعل إذن!

- لقد أخبرتك أن تعودي لتناول طعامك بشكل طبيعي، وتكفي عن كونك نباتية.

- إنها لعنة مينا.. دون شك هي لعنة مينا.

تسألني مُستفسرة: ومن يكون مينا؟

-عامل البوفيه، لقد انتزعت من وجهه شعرة بيضاء كانت تغيظني، لقد ظهرت لي تلك البقعة في المكان ذاته! تصوري!

تصرخ بي: بأي عقل تفعلين هذا!.. ماذا يقول عنكِ الآن!

-لا شيء، لقد أخبرت الجميع أنه لا يهتم بنظافته الشخصية، ولو اهتم بها لما فعلت ذلك!

تفتح فاهها في عدم تصديق ثم تقول: يا للبجاحة! ألا تجدين سوى المسيحيين لمشاكستهم!

- الأمر صدفة بحتة!

تقول بلهجة تقريرية: وتلك البثرة صدفة بحتة أيضًا.

- ألا تظنين أنها عقاب الله؟

- على أي شيء بالتحديد؟ على فقدك لعقلك فجأة؟ تحريمك لطعامه؟

أصيح بها: أنا لا أحرم شيئًا! أنا فقط أرغب في أن أكون بصحة جيدة.

- لا صحة فيما تفعلين، انظري ماذا حدث لوجهك، تظنين أن هذا عقاب الله؟.. راجعي نفسك إذن فيما تفعلين.

أرفع رأسي بشموخ قائلة: لن أقف ساكنة وهذا يحدث لي.

- ماذا ستفعلين إذن؟

- سوف أجري عملية استئصال.

- سوف تشوهين وجهك.

- ثم أجري بعدها عملية تجميلية.

أتركها راجعة إلى الحمام، بينما تصيح من فوق كنبتها: ومن أين ستأتين بأموال كل تلك العمليات؟

أصيح بدوري من فوق قاعة الحمام: سوف أقترض!

فترد عليّ صارخة: ابصقي فوق قبري إن وجدتِ من يُقرضك مليمًا أحمر!

أتناول هاتفي المحمول الذي وضعته فوق طرف الحوض، ومن خلاله أضع أحد المنشورات لوصفة من وصفات السحور على إحدى الصفحات الخاصة بالطبخ.

تظهر أمامي رسالة جديدة على الصفحة الرسمية للشركة، شخص ما يسأل عن أحد المناصب التي لا أفهمها وتبدأ بحرف الـ"سي".

بصورة آلية أرد عليه بالبريد الإلكتروني الخاص بالتقديم.

- شكرًا لك.. يبدو أن الرسالة وصلت للتو إليكم بسبب مشكلة في الإنترنت.. لقد أرسلت سيرتي الذاتية ولدي مقابلة غدًا.

أراجع الرسائل القديمة لأجد أن هناك من رد عليه بالفعل! تبًا!.. لا أرغب بأن يراجع أحدهم الرسائل ويعتقد أني أرد بشكل عشوائي دون تركيز.

أحاول مجاراته قليلًا في المحادثة مدعية اللطف: حظًا سعيدًا.

ثم أتبع ردي بصورة لوجه مبتسم ابتسامة سمجة، لكني أخطئ وأرسل مكانه قُبلة!

أشعر بالإحراج الشديد عندما يرد بأحد القلوب الكبيرة.

أرى رسالة من العمل تصلني على الفيسبوك فأتجاهلها، تلك الرسالة لن تنص على "كيف حالك" بكل تأكيد؛ بل ستكون خازوقًا ما على غرار: هل لديك وقت ما لكتابة كذا، أو تنزيل حلقة كذا، أو الانتهاء من التقرير الفولاني؟.. هل لديك وقت لفعل كذا وكذا لأنني لن أستطيع؟

وبالطبع هم لن يستطيعوا؛ لأن حياتهم ممتلئة، لأن لديهم حفلاتهم، وسهراتهم، أما أنا؟.. فلا حياة اجتماعية لدي! يفترضون ببساطة أنني عجوز تفضل قضاء إجازتها في مشاهدة التلفاز مع بعض السوداني.

هذا للأسف حقيقي، لكنه لا يعني أنني سأفتح رسائلهم الوقحة.. إذا أرادوا التواصل معي.. كأن يتواصلوا معي حقًا بشأن العمل؛ عليهم مراسلتي على البريد الإلكتروني.. هذه هي سياسة الشركة، كل شيء يجب أن يكون موثقًا؛ لذا سأكون مضطرة للرد عليهم حتى لو لم أرغب في ذلك، وفي العادة هم لا يفعلون، لأنهم يرغبون في التظاهر بأنهم يقومون بعملهم، ولا يلقونه فوق مكتب شخصٍ آخر.

لا أدري متى توقفت عن اعتبارنا فريقًا واحدًا، كل شخص يساعد الآخر قدر استطاعته، لا أدري متى تغير كل هذا، لكن كل ما أعرفه الآن أني ناقمة بشدة دون سبب واضح، وباتت أتفه الأشياء تثير ضيقي، وأكثر ما يثير حنقي وضيقي

هي تلك البثرة الخضراء التي تتسع يومًا بعد يوم، لا أدري ماذا سيحل بي، وإلى أي مدى ستتسع.. رُبما تضطرني يومًا لإشهار إسلامي، وارتداء النقاب، رُبما تغيير اسمي وعنواني أيضًا وبدء حياة جديدة تحت اسم جديد مثل "فاطمة" أو "خديجة".

على كل حال أي اسم بالتأكيد سيبدو أفضل من اسمي الذكوري السخيف المثير للسخرية، ذلك الاسم كان المسمار الأول في نعشي؛ فبسببه لم أتوقع أن تكون حياتي مثيرة بأي شكل من الأشكال.

درجة منسية وسط درجات قوس قزح

-10-

عندما أصل إلى عملي في اليوم التالي أجد ماريا قد وضعت لي علبة من القهوة لنوع لا أعرفه فوق مكتبي؛ علبة أنيقة تبدو أغلى من ذلك النوع الذي أشربه.

لم تكن ماريا تجيد الاعتذار، ولم أكن كذلك بدوري.

ألمحها تجلس في الشرفة وحدها تدخن سجائرها، فأذهب إلى المطبخ لأعد كوبين من القهوة، وآخذهما إلى الشُرفة.

أدخل وأجلس بجوارها، ثم أضع أمامها كوب القهوة، إلى جوار كوبٍ آخر فارغًا للقهوة المثلجة، تضع بداخله ماصتها المعدنية في لفتة منها للحفاظ على البيئة.

تتناول الكوب الذي صنعته من أجلها دون أن تقول أي شيء.

- الجو لطيف اليوم.

- الجو مثل الخراء...

تُعلق ماريا وهي تطفئ سيجارتها، ترشف قليلًا من القهوة ثم تتابع: لا أستطيع طلب إفطار من أي مكان، جميع المحال مغلقة.

- ماذا تتوقعين؟

- أتوقع أن يكون هناك بعض المحال الرخيصة التي أستطيع شراء منها بعض ساندوتشات الفول! لن أفطر من جورميه بالتأكيد!.. ليس لدي أموال لهذا الخراء.

- لا أهتم كثيرًا لوجبة الإفطار في الحقيقة؛ عادة ما أهتم أكثر لوجبة الغداء أو العشاء، لكن المطاعم المتوسطة في هذا الوقت من السنة تلغي العمل بقائمتها وتضع قائمة موحدة سيئة للغاية.

تهز رأسها موافقة وهي تقول بلكنتها الغريبة: أنتِ تفهميننني.. ظننت أننا سنكون على وفاق عندما رأيتك.. لست مليئة بالخراء.

تكمل بقية جملها بالإنجليزية.

أبتسم لجملتها، لم أظن أن هذا انطباعًا يستطيع أحدهم أخذه عني؛ ففي العادة أحب أن أخبر نفسي دائمًا أنني لا أهتم بالانطباعات التي أتركها عند مقابلة أحدهم، لكني أهتم.. داخليًّا أهتم، ولكن ليس للدرجة التي تجعلني أرغب بأن أكون محبوبة من الجميع، أنا أرغب فقط في ألا أثير أي انطباع، وهذا صعب؛ خصوصًا وأن الشعور الذي أتركه بداخل من حولي هو خليط بين عدم الراحة والنفور، هناك بعض الحالات التي لا تهتم حقًّا لمن أكون، وهذا شيء جيد لكوني لا أهتم لمن يكونون كذلك.

حاولت تفسير ذلك الشعور الخاص بعدم الراحة الذي أثيره خصوصًا في الشركة؛

لم يكن الأمر يعود لمشاهدتي للأفلام الوثائقية، أو لفيديوهات إنقاذ البيئة والحيوانات، كذلك لا يعود لكوني نباتية أو مسيحية.. لقد كنت فقط مكروهة في المطلق، كمن يشاهد بركة موحلة وينفر منها ومن لونها.. يعرف أنه لن يرتدي هذا اللون أبدًا. وهذا أنا.. لون لا يلائم أي درجة من درجات البشرة.

هذا لم يناسبني لكنني اعتدته؛ لأنني امرأة فقدت الشعور بالبشر، الشعور بالتعاطف معهم كذلك.. هذه الكائنات الجاحدة.. الناكرة لكل شيء مثل أبي، قادرين على تشويه أي جمال.

تسألني ماريا: أتحبين الحياة في مصر؟

أجيبها: أظن ذلك.. إنها لا تضايقني.. أجد في عشوائيتها الكثير من الراحة حقًا.

- لماذا أشعر أنك تكرهينها إذن أو.. لا أدري هناك نظرة اشمئزاز فوق وجهك دائمًا كأنك تسبين حياتك كل صباح.

- أعتقد أني أكره البشر، لا حياتي.

- لماذا؟

- لأنهم لا يملكون أي ميزة عن القمل سوى أن الطبيعة كانت في صفهم قليلًا حتى تطوروا.

تضحك لجملتي وكأنها نكتة.. لكني في الحقيقة توقفت عن اعتبار نفسي بشرًا منذ دهور.. لم أعد أعتبر نفسي "منهم".. أنا على الأرجح ضفدع يستمتع بوحدته، أو سمكة برتقالية اللون أصابها مرض ما جعلها تسبح مقلوبة الرأس.. أنا سمكة برتقالية تغرق في حوض زجاجي، أو بطة.. نعم.. ربما أكون بطة تعوم بهدوء فوق سطح الماء بينما تتحرك قدماها القصيرتان بسرعة شديدة في محاولة منها للنجاة.

أو لعلي ذبابة.. ذبابة محبوسة بداخل سيارة ترتطم بالزجاج مرة تلو الأخرى غير مدركة أن هذه هي حدود عالمها في الوقت الحالي، ولا يمكنها أن تتخطاها إلا إذا أذن أحدهم بفتح الزجاج.

أحيانًا أفكر كيف ستكون الحياة لو كان القمل تطور، لو كنت أنا تلك النملة فوق الحائط. هل تعتبرني تلك النملة إلها؟ هل تخشاني؟ هل تراني؟ هل أنا العالم بالنسبة إليها؟ هل تهتم حقًا؟ هل تملك ديانة وهوية؟ هل يعتبر النمل مياه المسح التي تقتل بعضها دون قصد مني ابتلاء من الله؟ كأنه فيضان؟ هل يعتبر النمل المبيدات الحشرية أسلحة بيولوجية تطلقها عليها مجموعة أخرى من النمل؟ هل تتحارب مستعمرات النمل بعضها البعض؟ وهذا شيء يستحق البحث عن أحد الأفلام الوثائقية لإثباته!

أخبر ماريا بينما تشعل سيجارة جديدة: لوقت طويل في طفولتي كنت أطعم النمل، آخذ القليل من السكر وأرشه بالقرب من جحورها، قطع الخبز أيضًا، كانت أمي تمنعني من ذلك لكني لم أكن أستمع إليها.

تنفث دخانها من فتحتي أنفها ثم تُعلق: أنا أخاف الحشرات، خصوصًا الصراصير.

أُعلِّق بدوري: لفترة طويلة كنت أقتل الصراصير، حتى توقفت في يوم ما، ناظرة إلى هلع صرصور ما وأنا أركض خلفه، هل لديه عائلة يعود إليها؟ هل أقتله لأنه قبيح؟ هل كان الناس سيتقبلونه لو خُلق فراشة؟ بلون وردي مثل حلوى القطن؟

منذ ذلك اليوم قررت عدم إزهاق أي روح ضعيفة، تلك التي لا يتسنى لها الوقت بمجابهتي، وبدأت في استعمال الشمع المستخلص من مواد طبيعية لطرد الحشرات.

- من أين تشترينه؟ كنت أبحث عن إحداها ولكني لم أجده.

- سوف أشتري لكِ إحداها لتُجربيه.

أكثر ما أحبه في ماريا - إذا اعتبرت هذا حبًا - كونها لا تهتم كثيرًا بتفاصيل كلماتي، تستمع فقط لما يعنيها منها، رُبما هذا يعود إلى كونها تسبح في غمامة من الحشيش؛ فهو بالنسبة إليها بديلًا رخيصًا وطبيعيًّا للمهدئات.

تعبث بما تبقى في كوب القهوة ثم تقول وهي شاردة: لماذا تفكرين كثيرًا.. تطرحين الكثير من الأسئلة؟

- لا أعرف، في العادة عقلي فقط لا يكف عن طرح تلك الأسئلة. إنه الفراغ على الأرجح.. حياتي فارغة لهذا أنا أملك كل وقت العالم خصوصًا الساعتين اللتين أقضيهما في أتوبيسات الهيئة العامة كل يوم في الذهاب والمجيء من العمل، تلك الساعات كفيلة بجعلي أفقد عقلي.

- لدي كود "أوبر" سوف أرسله لكِ بإمكانك الحصول على رحلة محترمة بأجر بسيط.

- آه لا عليكِ، لا أملك في هاتفي مساحة لتحميل أحد التطبيقات.

تهز كتفيها قائلة: لقد اضطررت لحذف تطبيق تتبع مواعيد دورتي الشهرية لتنزيله.

أسألها بذهول: هل هناك تطبيقًا لتتبع مواعيد الدورة الشهرية؟!

فتبادلني الذهول ذاته قائلة بإنجليزية ذات لكنة أيرلندية: في أي عصر تعيشين يا امرأة!.. حقًا أنا أحسد قدرتك على تهميش كل شيء.

- قد تكونين أول من يحسدني على شيء يا ماريا.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنني شخص في العموم غير مثير للحسد؛ فأنا لا أضع الزينة، أو العطور أو أي شكل من أشكال المنافسة لأي امرأة سواء كانت متزوجة أو عزباء.

تسألني: ماذا عن الرجال؟

- ماذا عنهم؟

- أظن أنكِ لا تملكين صديقات.. ماذا عن الرجال؟ ألا تملكين حبيبًا أو صديقًا؟ لا يمكن أن يكون أحدهم وحيدًا بهذا الشكل؛ فحتى أنا أملك قطًا!

أكتم ضحكتي ثم أجيبها مفكرة: أظن أن الأمر يعود لديانتي وسني، أنا لا أملك شيئًا سوى عملي؛ كما أن ٩٠٪ من رجال الشركة مسلمين، وكلما تقدم بي العمر أصبح الأمر أصعب في إيجاد الشريك المناسب من الطائفة ذاتها. رفيقًا مناسبًا في الدين نفسه والطائفة نفسها لا يكون متزوجًا أو لديه خطيبة أو حبيبة.

- آه لقد مررت بهذا أيضًا، يظن الجميع أني مسيحية بسبب اسمي.. تلك العاهرة "سمر" كانت تتجنب دخول الحمام بعدي! تصوري!

- لقد فعلت معي الأمر نفسه، تتظاهر بأنها تحتاج إلى مرآة لضبط حجابها ثم تخرج في انتظار شخصٍ آخر كي تتمكن من الدخول بعده!

- مؤخرات المسلمين طاهرة!

- المسيحيون لا يستخدمون الشطافات.

تُعلق ضاحكة: كذلك لا يستحمون إلا فيما ندر.

أضحك معها متذكرة أحد المواقف: تعلمين.. إحدى زميلات الدراسة سألتني يومًا إذا كنت أغسل رأسي وجسدي سويًّا لأن أحد الشيوخ أخبرها أن المرأة المسيحية تظل دائمًا على جنابة لكونها دائمًا ما تفرد شعرها عند الكوافير، بالتالي هي تغسل رأسها وحده وجسدها وحده ولا تلتزم بمعايير الطهارة الإسلامية! ورغم سذاجة قولها إلا أنني جاريتها وسألتها وماذا عن الرجال المسيحيين؟ لكنها لم تستطع الإجابة!

تسألني ماريا بسذاجة: ماذا تعني "جنابة"؟

أشير لها بيدي أنه لا عليها...

- صحيح أين ذهبت تلك العاهرة؟ لم أرها منذ يومين؟

- لقد استقالت صباحًا.

ترفع قدح قهوتها هاتفة: هللويا!

يصل إلينا صوت ضحكة عالية تأتي من الخارج، ألتفت أنا وماريا لنرى مدير الشركة يضحك مع شابٍ لا نعرفه، يعرفه بالموجودين، ثم يتجه به نحو الشرفة.

تُعلق ماريا: من هذا الوسيم؟

أجيبها غير مهتمة: سنعرف في أقل من ثانية.

يفتح المدير باب الشرفة ويتقدم الشاب معرفًا به: يوسف، مدير الجودة الجديد، ماريا وأنيس.

تمد ماريا يدها تجاهه وتعرفه بنفسها بشكل أفضل بينما أكتفي فقط بالتحديق إليه.

أسمر وطويل، له شعر كثيف منفوش من الأمام، أهداب كثيفة وعين واسعة بنية اللون، تبدو بنية واضحة وصريحة مثل لون القهوة في ضوء الصباح.

يلتفت نحوي فأهز له رأسي بتحية بسيطة ثم أنسحب وأتركهم يدردشون معًا.

***

في تمام السابعة والنصف أفتح باب الشقة لأجد خالتي تجلس كعادتها فوق كنبة الصالة، تُحَضِّر فناجين القهوة، وتُخرج علبة صغيرة مليئة بكعك الملاك.

ابتسم لها قائلة: هناك من استغل وقته في الخبز اليوم! يا للنشاط!

ترد عليّ: انقطعت إشارة "زي ألوان".

أبتهج للفكرة؛ لن أشاهد حلقة جديدة من "زوجتي السمينة" وأنا أشرب القهوة، رغم أنه مسلسل لا بأس به حقًا.. أعني.. كشخص يشاهد الأفلام الوثائقية أبدو بلا ذوق في معظم الأوقات.

تسألني خالتي: كيف حال وجهك؟

أنزع ضمادتي وأنا أمد خدي تجاهها كي تراه.

تهز رأسها: ما تزال كما هي.

أخالفها في الرأي: لا، لقد كبرت قليلًا عن البارحة، بشكل طفيف لن تلحظيه.

- وكيف رأيت ذلك الفارق الطفيف؟

- أقوم بخدعة بسيطة، ألون البثرة بالقلم المُحدد للعيون الرفيع، ثم أضع فوقها قطعة من اللاصق الطبي وأنزعه، فينتزع معه اللون ثم أضعه فوق مازورة قياس.

تقول وهي تناولني فنجان قهوتي: تعرفين أن هناك مشكلة برأسك.. أليس كذلك؟.. أنتِ بحاجة إلى رعاية يا أنيس.

آخذ منها فنجاني مُجيبة: أنا بخير تمامًا، إن ما أفعله طريقة فعالة حقًا.

- إنها طريقة مخبولة.

- هكذا هم العباقرة.. مهدور حقهم، ودمهم أحيانًا.

- لا تصنعي من نفسك شهيدة الآن واشربي قهوتك.

يسود الصمت بيننا ونحن نرشف قهوتنا. يبدو على خالتي الشرود، لكنها عادة ما تكون هكذا لهذا لا أعطي الأمر أكبر من حجمه.

أثني مشطي قدمي للأمام والخلف أكثر من مرة في محاولة مني لتخفيف وجع قدمي الذي تُسببه لي الأحذية الرخيصة وأبدأ في العد إلى عشرة.

إنه طقس يومي آخر...

عند رقم أربعة تتوقف قدمي وقد اصطدمت بشيء ما زجاجي موضوع تحت طرف الكرسي.

أمد يدي لأتناول ذلك الشيء ظانة أنه كوب؛ لكني أجده منفضة مليئة بأعقاب السجائر.. ليست النوع الذي تشربه خالتي خلسة لشعورها بالإحراج من التدخين أمامي، إنها سجائر رخيصة أميزها.. وأميز كذلك مُدخنها...

تقع المنفضة من يدي، ويتناثر غبارها في كل مكان.

لقد أيقنت من دخل منزلنا في غيابي.

- 11 -

لم يعد المكتب المجاور لي فارغًا، أتيت لأجد امرأة يافعة ما تجلس أمامه بابتسامة واسعة. تُرتب أشياءها بهدوء غريب، تخرج صندوقًا صغيرًا، ومقلمة، وبطة زرقاء ترتدي ربطة عنق!

كدت أضحك لرؤيتها.. كم تبلغ من العمر؟ لم تكن صغيرة على كل حال كي تضع تلك الأشياء كلها؛ ليست مثل "دينا" المتخرجة حديثًا، التي تضع عددًا كبيرًا من التحف الصغيرة الخزفية لتغطي نصف الطاولة، مع برواز أحمر رقيع كُتب بداخله إحدى المقولات الفيروزية "نحنا والقمر جيران"!

أو مثل ماريا التي تُعلق خلفها لوحة من كولاج لأطفال في بركة من الدماء!

أيضًا "رولا" و"آية" اللتان تضعان عددًا كبيرًا من اللعب المُرسلة مع وجبات أطفال ماكدونالدز.. صف كامل من السنافر الزرقاء المخيفة.

كلما تأخر بي الوقت في المكتب، حرَّكتهم من أماكنهم وسطحتهم فوق المكتب أمام عددٍ من الأجندات الورقية؛ وكأنهم انتحروا انتحارًا جماعيًّا من فوقها.

كنت أجد الأمر غاية في التسلية.. بل وكوميدي أيضًا، لكن لم يجده أحد في المكتب كذلك؛ لهذا لم أخبرهم بكوني الفاعلة، ورجوت ألا يفقد أحدهم شيئًا يضطره لمراجعة تسجيلات الكاميرات.

لم يكن تحريكي للسنافر الشيء الوحيد الذي أفعله في المكتب عندما أكون

وحدي، أقلب برواز "دينا" المستفز أيضًا.. هناك شخص ما بحجرة الفيديو يُعلق دمية على شكل قرد في إحدى الأبجورات.

يعلقها من رقبتها وكأنها شُنقت!.. المُسلي في الأمر أنه يُعلقها فوق مكتب رئيسة قسمه وشريكة المدير "إنجي".

لم تكن إنجي شخصًا سهل المعشر في نظري، إنها مخيفة.. لكن هل هي مكروهة؟.. لا أعرف حقًا.. فمن أنا لأحكم!

كلما رأيت ذلك القرد المشنوق أبتهج لسبب ما أجهله، أشعر بالقليل من الألفة؛ فأنا لست المختلة الوحيدة - في الخفاء - هنا!

توجه الفتاة الجديدة بطتها نحوي قائلة: مرحبًا.. أنا فاطمة.

آه.. ها هي تبتسم من جديد.. تتسع ابتسامتها، تُخرج شيكولاتة ما وتضعها فوق مكتبي.. "لندت"!

تلك الفتاة الجديدة التي لا تعرفني تعطني شيكولاتة سويسرية صرت أتجنب العبور من أمامها في السوبرماركت بعد التعويم!

أجيبها باقتضاب: "أنيس".

بينما ترتفع أمارات التوجس بداخلي، أنكمش محدقة إلى حاسوبي، الذي فتحته للتو لتظهر الصفحات التي لم أغلقها مُعلنة عن آخر أبحاثي.

يأتني صوتها من جديد، نبرات هادئة تحمل في طياتها ابتسامات: ماذا حدث لوجهك؟ هل أنتِ بخير.

أعود للنظر إليها من جديد، مُطيلة التحديق... تبًا للفضول!

- أحدهم أطفأ سيجارته في وجهي.

يبدو على وجهها الفزع، فأبتسم ابتسامة صفراء كي أهدئ من روعها: لم يطفئ أحدهم في سيجارته.. ليس في وجهي على أي حال، إنها مجرة بثرة مزعجة.

تسألني بذعر: ماذا تقصدين بـ"ليس في وجهي على أي حال"؟

أفكر: آه.. إنها تصغي لما أقوله!

أجيبها باقتضاب: مجرد مُزحة سخيفة.

لكنها ليست كذلك.

تقترب بمقعدها من مقعدي، ناظرة إلى صفحة حاسوبي المفتوحة وتردد: هل تبحثين عن أفضل الأماكن للقيام بجراحة تجميل!.. كوريا الجنوبية بالتأكيد إنها الأفضل، أتعلمين أنهم يدخرون طوال الطفولة والمراهقة كي يقومون بتلك العمليات بعد المرحلة الثانوية!

لا أُكلف نفسي عناء التعليق؛ لأنها مستمرة في كلامها بالطبع!

- إذا رغبت بالذهاب إلى هناك بإمكاني مرافقتك.. أنا أتحدث القليل من الكورية.

هذا يبدو واضحًا.. إنها إحدى مهووسي الآسيويين!.. وتجلس إلى جواري!...

أفكر: أريد أن أقتل نفسي الآن.

أعلق أخيرًا وأنا أتطلع إليها مُقيمة: فاطمة.. كم عُمرك؟

تتسع ابتسامتها قائلة: في التاسعة والعشرين.. إذا كنت أكبر منكِ بإمكانك مناداتي "أوني".. إنه لقب للأخت الكبرى.

أحاول نسخ ابتساماتها، دون أدنى رغبة مني في النظر إلى المرآة ورؤية وجهي الآن بهذا الشكل: تبدين يافعة للغاية.. لكن لا.. لن أُناديكِ بهذا.. أنا أكبر منكِ على كُل حال.

أعود للنظر أمامي أخيرًا، ثم أضع سماعات الحاسوب في أذني.

تلوح بيدها أمام وجهي؛ فألتفت إليها في ضيق.

تقول بخجل: أريد أن أتحدث معكِ بشأن مهام عملك.

- لماذا؟

- لقد أخبروني أنك هُنا منذ فترة طويلة وستكونين أكثر المعينين لي.

أتنهد ثم ألف كُرسيّ قائلة: تقتصر مهام عملي على كتابة بعض المنشورات على صفحات التواصل الاجتماعي المختلفة، رفع بعض الفيديوهات والصور والرد على العملاء، وإرسال نماذج من الشكوى للإدارة، وكتابة التقارير الشهرية وربع السنوية ونصف السنوية لجميع الحسابات التي أديرها.

أتوقف عن الكلام قليلًا ملتفتة نحو هاتفي الذي اهتز فجأة مُعلنًا عن وصول رسالة ما خاصة بأحد عروض الطعام المُقدمة من مطعم فاخر.

أتجاهل الرسالة وأُتابع: لا أحضر جلسات العصف الذهني لأنهم يقصونني خارجها؛ فهناك دائمًا مهمة ما يجب أن تتم.

- لا تقلقي، من الآن فصاعدا سوف نُعين بعض الأفراد الآخرين كي يتسنى للجميع المشاركة في جلسات العصف الذهني، كذلك سوف نُعين أحد الأشخاص كي يقوم بذلك نيابة عنكِ؛ لأنكِ على ما يبدو تقومين بثلاثة وظائف في وظيفة واحدة!

أسألها بعدم فهم: من سوف يُعين؟

- أنا.. لدي بعض المقابلات الشخصية هذا الأسبوع، لا تقلقي، سوف أعينهم بنفسي.

- وذلك بصفتك...؟

أنتظرها لتكمل الجملة؛ فتُكملها بتعجب رافعة حاجبيها: ألم يُخبروك أنهم عينوني كرئيسة لقسم الديجيتال!

أبتلع ريقي، ثم أقبض يدي على الشيكولاتة الموضوعة فوق مكتبي، أقف في هدوء وأتحرك.

لقد حان موعد أحد الطقوس اليومية الهامة؛ أتوجه ناحية الحمام الصغير المواجه لحجرة الفيديو.

ليس حمامًا إذا رغبت بتسميته هكذا، هو أقرب إلى مخزن، لكن جزء منه يوجد به حمام، اكتشفته بالصدفة، كما اكتشفت أنه يعمل بشكل فعال، كذلك الحوض، فأصبح مخبأي حين يضيق بي اليوم، أو أرغب في البكاء.. وقد جاء وقت البكاء.

أغلق الباب خلفي، أجلس فوق طرف المغطس الممتلئ بالكراتين التي يعلوها الغبار.

أُمزق ورقة الشيكولاتة وأضعها في فمي، وأمضغها بعنف.

عندها لا أتمكن من إمساك دموعي، أحاول الطرف بعيني سريعًا لكني أفشل في كبحها.

لقد حاولت العمل بجد شديد، حتى أصل لأي شيء؛ لكني حتى الآن وبعد كل تلك السنوات ما أزال في المنصب ذاته، لم أرغب بأن أصبح مرئية لكني رغبت فقط في القليل من التقدير، في إعطائي فرصة حقيقية؛ لكن تلك الرغبة كانت من طرف واحد، لم يكن هناك أي شخص يبصرني في الحقيقة.. يُبصر جوهري.

أفكر للحظة: هل أملك جوهرًا من الأساس؟.. هل أنا هنا الآن؟.. موجودة؟

ودون وعي مني يتصاعد نحيبي.. يتصاعد بصوت مسموع ومستمر.

يستمر نحيبي حوالي دقيقتين حتى أسمع طرقات صغيرة على الباب فأغسل وجهي سريعًا، وأجففه ببعض المناديل الورقية ثم أفتح الباب لأجد سوزان في وجهي؛ بالطبع سوزان! ومن يكون سواها!

تسألني بقلق: هل أنتِ بخير؟

لا أدري ماذا أخبرها؟ أني خائبة الأمل لأنهم لم يخبروني بأن هناك شخص ما سوف يأتي ليكون رئيسي؟.. أم أخبرها أني خائبة الأمل في العموم، لعدم تقديري بأي شكل؟.. لن أفعل.. هذا شيء لا يناسبني، سوف يُشعرني بالإحراج فقط.. هم ليسوا عائلتي لأعاتبهم، إنه مجرد مكان عمل.. "أكل عيش".. لذلك علي ابتلاع خيبة الأمل تلك، واللجوء إلى أكثر الكذبات قابلية للتصديق.

- توفيت إحدى قريباتي.

تُقطب جبينها قائلة: ربنا يعزيكِ يا حبيبتي.

تلمس كتفي في محاولة منها لمواساتي.

أهز رأسي شاكرة وأنا أقول "آمين" متظاهرة بالتأثر، تسألني: هل ترغبين في الذهاب الآن.

- سأكون ممتنة للغاية.

تخبرني بأنه بإمكاني الانصراف؛ فأنصرف.

***

كان شيئًا غريبًا أن أخرج من العمل في مثل هذا الوقت.. الساعة الحادية عشرة،

وما تزال الشوارع هادئة نسبيًّا، أقرر الذهاب إلى أحد المطاعم المجاورة لتناول وجبة إفطار تعوضني عما حدث لي اليوم، لكني لا أجد المطاعم المعتادة عليها مفتوحة.. لقد نسيت أننا في رمضان!

أتذكر رسالة الهاتف التي جاءت في وسط كلامي مع فاطمة رئيستي التي تصغرني بست سنوات.

أفتح الرسالة لأجد الخصم يصل إلى ٤٠٪، نسبة لا بأس بها، كما أن المطعم قريب، ومتخصص في المخبوزات، ويبدو أنه يقدم خدمته في هذا الوقت من الصباح!

لم يكن المطعم يبعد كثيراً عن منطقة عملي؛ على بعد شارعين فقط.

أضع سماعات الأذن مُشغلة إحدى الأغنيات بشكل عشوائي.

يأتيني صوت فريق "ABBA".

إنها ليلة يوم الجمعة، والأضواء باهتة..

تبحثين عن مكان يمكنك الذهاب إليه..

حيث يعزفون الموسيقى المناسبة، لتعيشي الأجواء

لقد جئتِ باحثة عن ملك..

أي شخص يمكنه أن يكون ذلك الشاب..

الليلة في أولها والموسيقى صاخبة..

يكفي القليل من موسيقى الروك حتى يكون كل شيء على ما يرام

أنت في مزاج جيد مناسب للرقص..

أسير بخطوات خفيفة مأخوذة بكلمات أغنية "Dancing Queen" التي لا أسأم منها.

أصل إلى المطعم بعد سير عشر دقائق، لم أتضرر من السير فقد كان الجو معتدلًا اليوم على غير العادة، أدخل إلى الجو المكيف، لم يبدُ على المطعم من الخارج أنه مفتوح، فقد غطى واجهاته الزجاجية من الداخل بلافتات ورقية طويلة.

لقد سمعتهم يتحدثون في العمل عن دوريات الشرطة التي تغلق المقاهي والمطاعم التي تعمل في نهار رمضان، كما أنهم يقبضون على الشباب المسلم

المجاهر بالإفطار، على الأرجح هذا يحدث فقط للمقاهي والمطاعم الصغيرة لا تلك المطاعم في الأماكن الراقية، أو مطعم مثل هذا، فمثل تلك المطاعم لن يجرؤ أحد على الاقتراب منها، كما أنها تغطي واجهاتها، ومعظم زوارها من الأجانب.

أجول بنظري بين الطاولات المزدحمة، أجد إحدى الطاولات في الأركان فارغة فأتجه ناحيتها.

أجلس معطية ظهري للحائط وناظرة عبر زجاج الواجهة المغطى وأبتسم لتلك الطبقة العازلة عن العالم الخارجي، بينما أستنشق رائحة المخبوزات والقهوة وتتسع ابتسامتي ببلاهة.

أجد قائمة طعام مفتوحة أمامي فوق الطاولة على صنف عجيب من المخبوزات الحلوة.

أتمتم: بحق الله ماذا يكون الـ"فينو..ازري"؟! ما هذا! كيف ينطقونه من الأساس!

أشعر بظلٍ يحجب عني الضوء الخفيف المتسلل من الواجهة المغطاة، لا أهتم له؛ فإذا كان النادل فعليه إذن أن ينتظر حتى أدرس ذلك المنيو جيدًا.

يأتي صوت مرح وعميق النبرات قائلًا: viennoiserie، هكذا تُنطق.

أرفع وجهي لأرى لمن هذا الظل لأجده ظل "مدير الجودة" الذي التقيته البارحة، يرتدي بنطالًا بلون الكراميل، وقميصًا لبنيًّا.

أقول له ببرود: وما شأنك بكيفية نطقي لها!

يرفع حاجبيه متفاجئًا من طريقة كلامي. هل توقع أن أرد بطريقة مرحة مثل تلك الطريقة التي تحدث إليّ بها؟!

لا ينزل حاجبيه وهو يسألني مشيرًا بيده للطاولة: أتسمحين؟

إنها مبارزة حواجب إذن! سيكون لي اليد العُليا فيها لأنني أجيد ما لا يجيده معظم الأشخاص وهو "رفعي لأحد حاجبي دون الآخر".

أرفع حاجبي الأيسر له متحدية وأنا أجيبه: لا.. لن أسمح، هناك العديد من الطاولات الفارغة لماذا ترغب في مشاركتي طاولتي؟!

أدور بنظري في المطعم، لكني لا ألمح طاولة واحدة فارغة.. كيف امتلأ المطعم فجأة هكذا!

يضحك ضحكة صغيرة غير مصدقة رافعًا يده إلى رأسه وكأن ضغطه فجأة ارتفع، يتمالك أعصابه وهو يقول لي بهدوء بينما ما أزال أحافظ على وضع حاجبي: أتعلمين.. لا عليك.

يسحب أحد المقاعد ويجلس أمامي.

يرتفع حاجبي الآخر غير مصدقة تلك الوقاحة.

- لم أسمح لك بالجلوس معي!

- لا يهم.. فأنا لست في حاجة لسماحك لي؛ كنت أجلس هنا منذ قليل، لقد أتيت وحجزت تلك الطاولة من قبلك على كل حال.

يأتي النادل واضعًا أدوات المائدة أمامه متبعا إياها بإفطار كبير مكون من أومليت وإلى جواره بعض الخس والطماطم، فنجان من القهوة وقدح من عصير البرتقال. أيضًا سلة صغيرة من الخبز المتنوع، وبعض العسل والزبد.

أبتلع لساني وأنا أراه يشير إلى الإفطار الذي أمامه ما أن يرحل النادل.

هل يحاول إغاظتي!

أجول في المطعم بنظري راجية أن تكون هناك طاولة أخرى فارغة.

يقاطع أفكاري قائلًا وهو يتناول كوب قهوته السوداء: لا توجد طاولة أخرى فارغة، لقد بحثت عن أخرى عندما رأيتك تجلسين هنا، لكني لم أجد.

أنظر له مستشيطة غضبًا.. يا لشهامته!

أعض على شفتي السفلية حتى أشعر بالألم، ثم أقول متراجعة عن موقفي: على كل حال نحن زملاء عمل؛ بإمكاننا أن نتشارك الطاولة حتى أجد أخرى فارغة.

يهز كتفيه بعدم اهتمام مخرجًا هاتفه من جيبه، يقلب في إحدى صفحات التواصل الاجتماعي وهو يلتهم طعامه.

يبدو جائعًا، وغير مهتمًا.. أحدق إلى قائمة الطعام أمامي مُفكرة في الطريقة التي تعامل بها معي.. متخيلة سوزان في مكاني، أو ماريا.. هل سوف يتحدث إليهما بالطريقة ذاتها التي تحدث بها معي؟.. أم سيكون لطيفًا أكثر؟

إن الرجال يتنازلون كثيراً من أجل المرأة الجميلة، يعطونها مهامًا أقل، يدفعون لها راتبًا أكبر، يتقبلون إهانتها، ويتلمسون لها الأعذار.

أحاول تقييم نفسي من وجهة نظر ذلك الزميل الجديد؛ امرأة ترتدي حقيبة تسوق، لا حقيبة جلدية أنيقة، تنتعل حذاءً بني به بعض التشققات، وبنطالا أسود قماشي يجعل مؤخرتها تبدو مسطحة، وقميصًا أصفر خردلي واسع له أكمام طويلة، ومغلق حتى الرقبة، به كسرات طفيفة تغطي على أي مظهر أنثوي قد يظهر، ولكن حتى من دون تلك الكسرات فأنا دائمًا ما أرتدي الصدريات الرياضية؛ الأمر الذي يجلعني شبه مسطحة.

شعري معقوف فوق رأسي بمشبك شعر مُقشر رخيص، لا أرتدي الحُلي بكل أنواعها، الأقراط، والأساور.. كل تلك الأشياء رغم أني أملك بعضها.

ربما لهذا لم أحصل على ترقية قط، فأنا لا أجيد الظهور.. مجرد درجة منسية وسط قوس قزح.

يقطع النادل تأملاتي سائلًا إذا كنت أرغب بطلب أي شيء أتلعثم قليلًا ثم أشير إفطار الشخص الجالس أمامي محدقًا إلى هاتفه قائلة: أريد إفطارًا مثل هذا.

يقول دون أن يرفع عينيه عن هاتفه: اختيار موفق!

عندما يجدني أتجاهله يرفع وجهه نحوي ثم يمعن النظر في وجهي.

أشعر بالإحراج قليلًا، لكني أبادله التحديق حتى تحرقني عيناي.

- هناك بواقي محرمة ورقية فوق جبينك.

أسب مئة ملة لسوزان التي تركتني أذهب هكذا.. وأنا أحاول الوصول إلى تلك المناديل المعلقة، أخرج هاتفي وأفتح الكاميرا الأمامية لأنظف ما تبقى من المناديل التي لا أجدها سوى قطعة صغيرة للغاية غير جديرة بالملاحظة من الأساس.

آه.. إذن هذا الشخص يتصيد لي الأخطاء!.. جيد.

أسأله بتعجب: هل وظيفة تصيد أخطاء الآخرين مسلية بالنسبة لك؟

يبتسم ابتسامة واسعة مجيبًا: لا تتخيلين حجم تسليتي.

تُظهر الابتسامة أسنانه، بيضاء.. عادية، ليست تلك الابتسامة الهوليودية، سنتاه الأماميتان أطول قليلًا من أسنانه الأخرى، وفي جانب فمه الأيسر يظهر سن صغير للغاية.

أقول بفخر وأنا أشير إلى جانب فمه: لديك أسنان لبنية متبقية من الطفولة!

يغلق فمه وتختفي ابتسامته.

يرن هاتفه فيقف مجيبًا ثم يتجه ناحية الكاشير، أراقب خطواته السريعة الواسعة.

هذا الرجل يملك مؤخرة أجمل من مؤخرتي بالتأكيد.

يصل إلى الكاشير، ويدفع حسابه، ثم ينصرف دون النظر إلى الخلف.

وعندها أضع يدي فوق قلبي متذكرة حجة خروجي من العمل، راجية ألا يقول أنه قابلني في هذا المطعم.

-12-

أدخل من باب الشقة لتتفاجأ خالتي بعودتي باكرًا، تنادي عليّ لكني أستمر في تجاهلها، كما تجاهلتها البارحة.

أدخل غرفتي وأغلق بابي.

يملأني الغيظ لكني لا أفعل أي شيء.. فقط أرتمي فوق السرير، وللمفاجأة أنعس!

أستيقظ بعد مرور ساعتين تقريبًا لأجد أن الوقت ما يزال عصرًا وأنا لا أملك أي شيء لأفعله.

أتصفح الفيسبوك بملل وأنا ما أزال بملابسي في السرير.

أفتح الرسائل وأجد رسالة جديدة من ابنة عمي "شيرين".

- في الحقيقة أخشى المجيء إلى مصر، أو مقابلة أحد من أفراد العائلة هناك، لدي شعور قوي بأنهم سوف يحبسونني ويزوجونني بأحدها.

أضحك بسخرية لرسالتها، فهذا لا يحدث هنا، أو.. لا يحدث لنسبة ما من الفتيات هنا، هناك نسبة بالتأكيد تتزوج رغمًا عنها في بعض العائلات أو في الصعيد أو الريف، لكن في المدن أظن أن الأمر نادرٌ ما يحدث...

أجيبها: لا أدري من أعطاكِ تلك الفكرة الخاطئة لكنها ليست حقيقية إطلاقًا، ربما هناك بعض حالات الزواج دون موافقة الزوجة لكنها تكون في الأماكن التي

تكثر فيها الأمية في الريف على الأرجح، لكن لم يعد يفكر أحد هكذا في الوقت الحالي.

أراها تكتب لي؛ فأنتظر ردها.

- ماذا عن التحرش؟ لقد شهدت فيديوهات على يوتيوب عن حالات تحرش جماعي تحدث في الميادين في الأعياد والمناسبات العامة، بعضهم وصل إلى الاغتصاب.

- للأسف لا أستطيع إنكار هذا، النساء يتجنبن الجزء الخاص بوسط المدينة في الأعياد، كذلك محيط ميدان التحرير، بالتأكيد سمعت عن ميدان التحرير من قبل، تلك المناطق فقط نتجنبها في الأعياد، لكن مؤخرًا هناك العديد من حملات التوعية التي تخص التحرش، عليكِ فقط كما قلت أن تتجنبي مثل تلك الأماكن وألا تركبين مواصلات عامة، استخدمي تطبيقات السيارات مثل "أوبر"، وابتعدي عن الأماكن الشعبية قليلًا، والمزدحمة، هناك العديد من الأماكن الراقية التي لن يضايقك أحد بها، إذا رغبت في زيارة المزارات المشهورة مثل الأهرامات أو خان الخليلي، فربما عندها قد تضطرين لارتداء ملابس محتشمة قليلًا تجنبًا للشجارات. غير هذا فالحياة هادئة في مصر، وآمنة.

أراها تكتب شيئًا جديدًا لكني أغلق المحادثة؛ لقد تواصلت بما فيه الكفاية معها اليوم، سوف أجيب عن أسئلتها فيما بعد.

أرجو ألا تطلب مني أن أستضيفها.. فتاة مثلها لن تدخل "الشرابية" سليمة أبدًا.

أترك سريري وأقف أمام المرآة كي أبدل اللاصقة الطبية، لكني أجد أن اللاصقات قد نفدت!

عظيم.. أخرج هاتفي لأتصل بالصيدلية التي تحتل الدور الأول في العمارة المجاورة لنا.

- مرحبًا.. أريد علبة لاصقات طبية.

تجيبني الفتاة التي ما تزال في سنتها الأولى في كلية الصيدلة ويطلقون عليها "دكتورة": أي نوع من اللاصقات الطبية؟

- النوع المستدير.

- الخاص بأي استخدام؟

- الخاص بجميع الاستخدامات.. ذلك النوع البني المستدير.

- آه، كنت أظنك ترغبين في شيء لإخفاء الحبوب.

- هل لديك شيء يخص الحبوب؟

- نعم لدي علب بها لاصقات خاصة بإخفاء الحبوب، رقيقة ومتنوعة الأحجام ويمكنك وضع طبقة كريم الأساس فوقها بسهولة، ولن تبدو ظاهرة.

أبتهج قائلة: رائع!.. أرسلي لي علبة، عمارة ٣٤ شقة ١٧.

أخرج من حجرتي كي أجلس بالقرب من باب الشقة لأجد خالتي جالسة تنظر بشرود من الشباك الواقع خلف كنبتها المعتادة.

هناك استعراض هندي ما تبثه قناة "زي أفلام"، لكنها غير منتبهة له.

أشعر بالبؤس لأجلها، للحظة تدمع عيناي دون مبرر فأسعل بشدة كابحة دموعي، تلتفت نحوي سائلة: ألن تأكلي؟

أجيبها شاعرة بذنب كبير: أفكر في صنع بعض المعكرونة.

- اختيار موفق.

أتذكر جملة ذلك الغريب ما أن تجيبني بتلك الجملة.

- آه.. يبدو أنه يوم الاختيارات الموفقة.. هل ترغبين ببعض الدجاج المشوي؟ بإمكاني طلب دجاجة لكِ؟.. آه لقد نسيت أنكِ صائمة.

تقول بنبرات مؤنبة: الله يُعذب وأنت ترغبين في شراء الفراخ المشوية!

لا أجيبها فتُتابع: هل تحاولين التكفير عن معاملتك السيئة لي البارحة واليوم؟

أهز كتفيّ: لماذا أحاول التكفير عن شيء فعلته أنت!..

كنت على وشك بدء شجارٍ معها؛ لكن جرس الباب منعني من هذا.

أتجه نحو الباب وأفتحه لأجد أحد أبناء الجيران بزي مدرسته الابتدائية الحكومية "بنطال بني، وقميص بلون الكراميل".

وجهه متسخ وغارق في العرق إثر اللعب في الشارع.. يبدو أنهم قرروا صرف عامل التوصيل وبدأوا يعتمدون على أطفال الشارع في مقابل حصولهم على بعض الفكة.

أنقده أربعة عشر جنيهًا ثمن علبة اللاصقات العجيبة ثم أزيدها جنيهين من أجل الطفل.

ينظر لي ممتعضًا لأنني أعطيته جنيهين فقط؛ لكني أغلق في وجهه السمج الباب.

ألقي بالعلبة فوق الكرسي المجاور للباب دون أن أتفحصها، ثم أعود لخالتي كي أُكمل شجاري معها لأجدها توجهت نحو المطبخ وبدأت في إعداد المعكرونة!

آه.. تحاول مُصالحتي إذن!

أشعر بغصة في قلبي، لكني لا أتهاون، أسألها بنبرات فاترة: ماذا كان يفعل هنا؟

تسأل ببراءة مفتعلة: من؟

باقتضاب أجيبها: أبي.. ماذا كان يفعل هنا؟

- لقد أراد رؤيتك.

- هل برئَ من شلله أخيرًا؟

- أي شلل؟

تسأل مستهجنة طريقة كلماتي؛ أكمل رافعة حاجبي، ومستمرة في اتخاذ طريق الفظاظة: على حد علمي لقد تركني معكِ وذهب لشراء محابس زفافكما.. منذ متى؟.. آه خمس عشرين سنة تقريبًا؟!

تتظاهر بأنها لا تسمعني وتضع المعكرونة في المياه التي لم تغلِ بعد.

لكني أستمر في لكماتي: لقد ظننت أن سيارة ما ضربته، ثم سرق أحدهم متعلقاته وهو في الطوارئ وانتهى به الأمر فاقدًا لذاكرته ومشلولًا.

- يا لقسوتك.

تضربني كلمتها.. فأصيح غير مصدقة: قسوتي!.. قسوتي أنا!.. إذا لم تقطعي علاقتك به لأجل أختك الميتة، أو لأجل ابنة أختك التي أساء معاملتها، فليكن لأجلك.. لأجل انتظارك له كل تلك السنوات، لأجل كل الأشياء السيئة التي فعلها وسيفعلها.

تتمتم وهي تقلب المعكرونة التي لم تغلِ مياهها بعد: لم أكن لأغلق الباب في وجهه على كل حال، لقد أتى، شرب شايه وذهب.

أتركها وأخرج من المطبخ متجهة نحو غرفتي فتخرج خلفي، أتناول علبة اللاصقة الطبية وأنا أتابع صياحي: شايه!.. هه! مدخنًا إلى جواره علبة كاملة من السجائر!

- ماذا كنت تتوقعين مني أن أفعل إذن؟ أطرده؟

أتوقف أمام باب غرفتي، ألتفت نحوها مجيبة: لا.. في الحقيقة أنا لا أتوقع شيئًا غير أنه أتى طالبًا منكِ بعض المال، وربما ليست هذه المرة الأولى؛ ربما يأتي دائمًا في غيابي؟

لا تجيبني ولكن نظرات الذنب تفضحها...

أسألها: لم تكوني لتخبريني أبدًا لو لم أكتشف تلك المنفضة أليس كذلك؟

تفتح فمها لكنها لا تجيب؛ فأهز رأسي بتفهم، ولكن تعابيري تعكس اشمئزازًا كبيرًا.

تسألني بنبرات منكسرة: ما الذي يرضيك يا أنيس؟ سوف أفعل ما يرضيك.

ألوي شفتي مُحركة كتفي، وأنا أهز رأسي يمينًا ويسارًا: لا شيء.. أنتِ امرأة كبيرة وهذا بيتك. لا يحق لي أن أخبرك من ترين ومتى، لكن كل ما أريدك أن تفكري به في المرة القادمة التي تستقبلينه فيها، عندما يجلس أمامك مبتسمًا، متذكرًا أيامكما سويًّا، مخرجًا سجائره، مشعلًا واحدة من أخرى، تذكري فقط أين كان يطفئها في الماضي.

أكمل جملتي وأنا أرفع قميصي لأظهر لها بطني التي شوهتها حروق السجائر والملاعق.

أتركها على وشك البكاء، ثم أدخل غرفتي مغلقة الباب بأكبر درجة من العنف.

أتمالك أعصابي، وأبتلع كل غضبي، أحاول تخيل نفسي سمكة ذهبية يابانية تسبح في بركة ما، شخص يهرول في إشارة "شيبويا".. أنا لست هنا، وحياتي هذه تحدث في مكان آخر الآن.. أنا انعكاس.. أنا غير موجودة.

أتنهد بعمق ثم أتناول علبة اللاصقات الطبية أفتحها لأجدها عبارة عن لاصقات مستديرة بأحجام مختلفة متراصة إلى جوار بعضها البعض فوق قطعة

بلاستيكية بحجم صغير، تبدو عملية؛ ولكن تلك العلبة ينقصها لاصقتان! شخص ما فتح العلبة وأخذ منها لاصقتين!

تشتعل رأسي من جديد، أسحب شبشبًا منزليًّا ثم أخرج من باب الغرفة لأجد خالتي ما تزال واقفة في مكانها، أعبر من جوارها قائلة: المعكرونة تحترق.

ثم أخرج من باب الشقة نازلة السلالم متوجهة ناحية الصيدلية اللعينة.

أندفع نحو باب الصيدلية، لأرى تلك الدكتورة بخصلات شعرها الشقراء المصبوغة، وعينيها الملونتين، ومكياجها الفج، وملابسها المزركشة.. ثم ألمحهما.. لاصقتيّ الطبيتين الناقصتين إحداهما فوق ذقنها، والأخرى ملصوقة في الجانب الأيمن من جبينها.

أرفع العلبة أمامها ثم أنفجر فيها سائلة: هل يمكنك أن تخبريني لماذا علبتي ينقصها لاصقتان طبيتان يماثلان اللاصقتين الموضوعتين فوق وجهك.

ترد ببجاحة: لا أدري ما الذي تحاولين قوله، ولكن هذا خطأ شائع من تلك الشركة الطبية، أحيانًا يأتوننا بعلب لاصقات ناقصة.

- تلك صدفة أن تتماثل اللاصقتان اللتان فقدتهما مع اللاصقتين اللتين تضعينهما فوق وجهك؟ لم لا تريني علبتك كي أتأكد بنفسي إذن؟

لا تجيبني وتنشغل بالنظر إلى هاتفها.

أقترب منها وأنا أهمس من بين أسناني قائلة بوحشية: والله العظيم، إذا لم تخرجي لي علبة أخرى كاملة، غير تلك العلبة التي أعطيتها لي ناقصة؛ فسوف أتحدث إلى صاحب الصيدلية لأخبره بأنك لصة قذرة؛ وأطلب منه عمل جرد لبضائعه كلها، بل سوف أساعده في هذا الجرد، أو ربما أستقيل من عملي، وأتطوع فقط للجلوس في هذه الصيدلية حتى مماتي، وأحيل حياتك جحيمًا متحركة.

تنظر الفتاة إلى وجهي بخوف وقد فقدت عقلي تمامًا وقتها.

أصرخ فيها: تحركي!

تعود إلى داخل الصيدلية ثم تخرج عددًا من العلب وتقلب فيهم حتى تجد واحدة كاملة وتعطيني إياها.

آخذ العلبة، ثم أبتسم لها قائلة بلطف: شكرًا.

ثم أستدير وأخرج من الصيدلية، أسير بخفة عائدة إلى الشقة، وما أن أدخل من الباب حتى تصل إلى أنفي رائحة الثوم المُحمر في الزيت، يبدو أن خالتي سوف تصنع الصلصة أخيرًا كما أحبها!

أعبر من أمام المطبخ صائحة: لا تنسي البصل.

ثم أدخل إلى حجرتي، أنزع اللاصقة المهترئة لأجرب اللاصقة الجديدة لأجد أن بقعتي الخضراء قد زاد حجمها من جديد!

أصرخ: يا يسوع المسيح!

-١٣-

- ما رأيك في مدير الجودة الجديد؟ ألا تجدينه مثيراً للاهتمام؟

تسألني ماريا وهي ترج عبوة قهوتها البلاستيكية، ثم تفتحها لتصبها في كوب ممتلئ بالثلج، وتخرج ماصتها الذهبية وتقلب بها الثلج في حركة دائرية.

كنا نقف في المطبخ وحدنا، إذا تجنبنا مينا عامل البوفيه النائم في أحد الأركان.

أصنع كوبًا من الشاي الأخضر، أصب المياه الساخنة أولًا، ثم أضع باكيت الشاي بداخلها وأراقب مؤقت ساعتي.

أجيب ماريا وأنا أحرك باكيت الشاي في المياه بملعقة صغيرة: في الحقيقة تكفيني فاطمة رئيستي الجديدة.

ترفع ماريا حاجبيها وهي تقول بنبرات يملأها الشك: أظن أنك ستجدينه مثيراً للاهتمام عندما تعلمين أنه مسيحي وغير متزوج، إنه توأم روحك بلا شك!

تسكت للحظة ثم تسألني بتعجب: ماذا تفعلين؟

- أنتظر ثلاثين ثانية قبل إزالتي لباكيت الشاي، هكذا يصبح أقل مرارة، إنه أحد طقوسي اليومية.. لقد رأيت إعلانًا البارحة لآلة على شكل البطريق، نلف خيط باكيت الشاي حول منقاره، ونضبط المؤقت الخاص به، ثم يرفع الخيط من تلقاء نفسه، لقد جعلتني تلك الآلة أشاهد فيلمًا وثائقيًا عن البطاريق.. إنها مخلوقات بائسة حقًا.

- ماذا؟.. أنا أحدثك عن رجل وأنتِ تحدثيني عن البطاريق؟

- إلى أي طائفة ينتمي؟

- هه؟

- مدير الجودة؟

تتردد ماريا لكنها تجيبني: لا أدري، لم أسأله عن ذلك...

يستيقظ مينا من نومه فجأة متلفتًا حوله، ثم يخرج علبة سجائره من جيبه، وعندما يراني أرمقه بنظرة غاضبة يخرج من المطبخ ليدخن في الشرفة وهو يتمتم بكلمات عن اصطباحه بوجهي.

أهز رأسي بتفهم، ثم أعود لأقول لماريا: كان سيشعر بالإهانة بالتأكيد، كنت سأشعر بالإهانة لو سألني أحدهم هذا السؤال.

تسخر ماريا قائلة: هل أنت من طائفة سرية أم ماذا؟

تلح عليّ عندما تجدني لا أجيبها: هيا، تحدثي، لن أفهم على كل حال ما ستقولينه، لكني شخص كتوم.

أتلفت حولي ثم أقول بصوت خافت: أنا بروتستانتية، هل تعلمين النسبة المحتملة التي تجعل رجل الأحلام هذا بروتستانتيًّا؟

- لا أعرف.. خمسين في المئة؟

أتابع همسي: صفر!.. تلك النسبة هي صفر لأن البروتستانت أقلية في مصر، إذا كنت تعتبرين المسيحيين أقلية فالبروتستانت أقلية الأقلية.

تسألني ماريا: لماذا تهمسين هكذا؟

أتنهد وأنا أجيبها: أنا لا أحب التحدث عن ديني أو طائفتي وانتمائي، تلك الأشياء تجعلني أتحسس، ولا أرغب في الدخول في نقاش مع أحدهم حول الفروق

بين الطوائف أو التشابهات بين الإنجيل والقرآن.. الكثير من الصداع الذي أوفر نفسي عناءه.

- آه فهمت، ولكن سؤال أخير.. هل يشكل كونك بروتستانت عقبة عند الزواج من أي شخص ينتمي لطائفة أخرى؟

أهز كتفي معلقة: ليس حسب كنيستي، لكن.. دعينا فقط نقضي على هذا منذ البداية؛ هناك مقولة تقول "لا تتبول حيث تأكل"، تلك المقولة أتبعها طوال حياتي، فأنا لا أرتبط بأشخاص أعمل معهم، أو أدرس معهم أو ننتمي للعائلة ذاتها.

تقول ماريا بأسف وهي ترشف قهوتها: كنت أنوي تركه لك، لكن على كل حال بما أنك رفضت الأمر فالطريق أمامي ما يزال مفتوحًا.

أنظر لها رافعة حاجبي وأنا أقول: ألن يسبب لك هذا مشاكل؟

ترفع يدها بشكل استعراضي وتقول: هل أبدو لكِ كشخص يهتم بشأن الدين؟.. إن أول رجل في حياتي كان من نيجيريا.

أهز رأسي قائلة وأنا أرفع سبابتي قائلة: أولًا المسلمين يشكلون ٧٥٪ من سكان نيجيريا، ثم أنا لا أتحدث عن الدين، أتحدث عن العلاقات داخل العمل، كما قلت لكِ أنا أتحسس من مناقشة تلك الأشياء.

تقول بملل: بربك يا أنيس من يعرف عدد المسلمين في نيجيريا؟

وقبل أن أجيبها تسكتني بإشارة من يدها متابعة بإنجليزيتها الآيرلندية: أعلم أعلم.. لقد شاهدتِ فيلمًا وثائقيًّا عن نيجيريا، لكن إجابتي هي أنه لم يكن مسلمًا على كل حال، كان من ذلك الرقم المتبقي غير المسلم، ثم.. حقًّا.. لأجل يسوع أنتِ في حاجة إلى أن تنضجي قليلًا، لن يسبب الأمر مشكلة في العمل إذا لم يعرف عنه أحد شيئا، لقد ارتبط المدير بثلاثة فتيات عملن هنا!

أقول مشدوهة: ماذا!

- لقد عرفت تلك المعلومة منذ أسبوعي الأول في العمل!.. أخبريني من جديد منذ متى وأنتِ تعملين هنا؟

أشعر بالخجل ولا أجيبها.

تكمل وهي تغمز لي: سوف أذهب للبحث عن ذلك الوجه الجديد.

ثم تتناول كوب قهوتها وتخرج من المطبخ.

أتناول كوب الشاي بدوري، وأفتح الباب الآخر للمطبخ لأخرج منه لأجده أمامي!

تتسع حدقتا عيني.. أنا أصغر من أن أصاب بالهلوسة! هل سمع حديثنا كله؟ يا للإحراج!

يقاطعني متقدمًا مني مما يجعلني أتراجع إلى داخل المطبخ من جديد، أكاد أسكب الشاي فوق قميصي الأسود.. أنا أرتدي اليوم الأسود! لقد نسيت كل شيء عن حالة الوفاة الوهمية! هل وشى بي؟.. اللعنة!

دارت كل تلك الأفكار بداخل رأسي حتى قاطعها صوته.

- مرحبًا مرة أخرى، لم أكن أسترق السمع، لكني سمعت بعضًا من حديثك مع ماريا ويبدو أنه كان حولي، على كل حال...

لا أستمع إلى ما يقوله، فقط أقاطعه بهستيرية: لا.. لا.. لا مستحيل!

أنظر حولي متلفتة.

- دعنا نكمل حديثنا في الشرفة.

أشير إليه بأن يتبعني؛ فيمشي في إثري، نمر من أمام مكتب ماريا التي ترمقني بنظرات خبيثة ما، وهي ترفع إبهامها بعلامة ما تدل على أن ما أفعله جيد!

"اللعنة.. ليس هو.. ليس الآن"...

ما أن ندخل الشرفة حتى أضع كوب الشاي فوق الطاولة الصغيرة الزجاجية، وأتنهد قائلة: أعلم أن لقاءنا البارحة في المطعم لم يكن أفضل طريقة للتعارف،

لكن هل بإمكانك إسدائي خدمة وتعتبر أن لقاء البارحة لم يحدث؟.. وأننا لم نلتق سوى لأقل من دقيقة في الشرفة عندما عرفنا المدير؟

يبدو عليه التعجب وعدم الفهم وهو يسألني: ولماذا عليّ فعل ذلك؟

أقول ببطء مغمضة عيني: لأن الأمر سيسبب لي مشكلة.

يهز كتفيه بلامبالاة قائلًا: لا أستطيع مساعدتك دون أن أفهم الأمر بشكل كامل.

أتنهد من جديد محاولة ألا أبدو مجذوبة، ثم أقول: لقد كذبت البارحة كي أهرب من العمل، أخبرتهم أن لدي حالة وفاة، إذا أخبرتهم أننا التقينا في المطعم فسوف يسبب هذا لي مشكلة.

- آه.. حسنًا.

أسأله بتوجس: حسنًا ماذا؟

- لا شيء، لقد أخبرتني السبب، لهذا لن أذكر شيئًا، لم أكن لأذكر الأمر على كل حال.

- شكرًا لك.

أحاول إرغام نفسي على الابتسام لكني لا أستطيع.

- لماذا كذبت؟.. إذا لم يكن لديك مانع في إخباري.. لن أغير رأيي بالنسبة لعدم التحدث عن الأمر.

أغمض عيني من جديد قائلة: لقد انفجرت في البكاء دون سبب، والجميع هنا يحبون الأسباب.. مثلك الآن.. فأعطيتهم سببًا كاذبًا كي فقط يتركوني لحالي.

- هل شعرت بالإحباط لأن رئيستك المباشرة تصغرك بعدة سنوات؟

أرفع وجهي له وأمعن النظر فيه دون أن أتحدث.

يتابع كلامه: سوف يذهلك ما قد يعرفه المرء في أقل من ثلاثة أيام هنا.. هذا ما أخبرتني به سوزان، عندما كانت تُدردش معي البارحة، أخبرتني أنك تعللت بأن هناك حالة وفاة لكن يبدو أن الأمر سببه تلك الرئيسة الجديدة.

أضحك باستهزاء قائلة: ومن أين لها أن تعرف!

يهز رأسه لاويًا شفتيه ثم يقول: يبدو أنك تلقيت عددًا من أنباء الوفاة فيما مضى ولم تذرفي دمعة واحدة، قالت أنها المرة الأولى التي تراك فيها تبكين، لذلك.. أنا أتفهم الأمر، لكني أخبرك أيضًا أن سوزان تتفهم الأمر.

أكتم ضحكتي الساخرة ولا أتعب نفسي بالرد.

- لماذا تضحكين؟ ما المضحك في كلامي؟

أتنهد مجيبة: إنها فقط سوزان.. أضحكني كونها تتفهم.

يفكر قليلًا ثم يقول وهو يفرك ذقنه: أتفهم توجسك، إنها غنية وجميلة وليس لديها أي سبب للعمل هنا، وتحب مساعدة الجميع؛ لذلك لا بد أنها تملك خنجرًا خفيًّا ستطعنك به على حين غرة.

- آه!.. بالضبط!

أبتسم نصف ابتسامة سعيدة بكونه يقرأ أفكاري، لكن متابعته للكلام تجعل ابتسامتي تلك تختفي.

- رغم أنها أنانية ومتباهية ولا تتوقف عن الحديث؛ إلا أنها شخص جيد، إنها وحيدة للغاية.

أرد بنبرة عدائية: إنها تملك خطيبًا، وتخرج برفقة الفتيات هنا كل يوم!

يهز كتفيه: إنها وحيدة رغم كل ذلك، هناك بعض الأشياء لا يمكن تفسيرها مثل أن نشعر بالوحدة في وجود من نحب.

أهز كتفي بدوري قائلة: عليها أن تربي كلبًا إذن.

أرفع كوبي لأرشف القليل منه بينما يتابع هو:

- ربما عليك أنت أيضًا فعل ذلك، ليس على النساء الجميلات أن يبقين وحدهن أبدًا.

أشعر بالاختناق عند سماعي جملته وأبدأ في السعال.

يتناول مني الكوب ويضعه على الطاولة الزجاجية، ثم يسحب منديلًا ورقيًّا من علبة المناديل الموضوعة فوقها ويعطيه لي.

أتناوله منه شاكرة وأنا أقول: إنه لمن الكُفر وضعي أنا وسوزان في الجملة ذاتها، ألا تستطيع الرؤية جيدًا؟

أشير إلى خارج الزجاج نحو سوزان الجالسة أمام مكتبها وحولها هالة مشعة من الجمال، ثم أشير بيدي نحو وجهي.

- لحظة واحدة! لماذا لم تتفاجئي عندما وصفتك بالوحيدة؟

- لأنني أبدو هكذا، أنت تستطيع عند النظر إلى شخص ما أن تعرف إذا كان هناك أحدهم في حياته أم لا.

- في الحقيقة لم أظن هذا عندما شاهدتك للمرة الأولى، كان انطباعي عنك أنك خجول، ثم التقينا في المطعم فظننت أنك لست في مزاج مناسب للحديث، لكني لم أعرف تلك المعلومة حتى أرتني ماريا صورة وأنت تبتسمين، ظانة أنني أخذت انطباعًا خاطئًا عنك، وأننا سنكون ثنائيا رائعا أو شيئا من هذا القبيل.

- لا لم تفعل!

- صحيح، لم تفعل، سوزان فعلت!

أهز رأسي مجيبة: متوقع... حسنًا إذن فرصة سعيدة.

- أنا بروتستانتي.

- ماذا؟

- أنا بروتستانتي، أخبرك بهذا إذا رغبت بتغيير رأيك في وقت ما.

- ألم تكن تصغي إلى حديثي مع ماريا؟

- بشأن كونك لا "تتبرزين حيث تأكلين؟".. لقد سألتِ عن ملتي في البداية قبل أن تخبريها بذلك؛ ظننت أنه بإمكانك وضع أحد الاستثناءات.

- أتسخر مني الآن؟.. أنت لست بروتستانتيًا.

ينفجر ضحكًا وهو يقول: لن تعرفي هذا، ليس الآن على الأقل بما أنكِ تملكين حساسيات في التحدث عن تلك الأمور، لكني للأسف كنت أرغب في معرفة المزيد عن آلة الشاي تلك التي تُشبه البطريق.

- إنها لا تشبه البطريق بل هي على شكل بطريق حقيقي، إنها ظريفة للغاية، وتعمل بمؤقت...

- ألا تستمعين لنفسك عندما تتحدثين؟

أسكت قليلًا، محاولة استيعاب ما يقوله لي.. هل يحاول إخباري بأن حديثي ممل أو تافه؟

- هل تحاول إخباري الآن أن حديثي تافه؟

يتراجع مدافعًا عن نفسه قائلًا: أنا لم أقصد هذا.. كنت أقصد...

أقاطعه قائلة بعصبية: لا عليك، فقط دعنا نبتعد عن طريق بعضنا البعض.

أسحب كوب الشاي من فوق الطاولة، ثم أستدير وأتركه في الشرفة متجهة نحو مكتبي.. أنتبه لنفسي عندما أشعر أن ابتسامتي خفتت! لقد كنت أبتسم له!.. أتحدث إليه وأبتسم!.. أتحدث مع رجل لا أعرفه كل هذا الوقت وأبتسم!

أجلس أمام مكتبي ثم أضع سماعات الأذن، وأشغل إحدى أغنيات "البيتلز"، ثم أنتبه إلى علبة صغيرة فوق مكتبي لم أكن قد رأيتها في الصباح.

أفتحها لأجدها لاصقات طبية صغيرة ذات جودة أفضل من تلك التي اشتريتها البارحة، جميلة ولونها بيج بلون الجلد لا تحتاج إلى أن أضع فوقها القليل من كريم الأساس كما فعلت اليوم.

في باطن العلبة أجد ورقة صغيرة كتب فوقها بحروف إنجليزية رقيقة:

"أعتذر عن مضايقتي لك البارحة.

يبدو أن علاقتنا لم تبدأ بداية جيدة.

دعينا نتناول الغداء سويًّا في أي وقت تحبين.

سوف أدفع.

فاطمة".

أبتسم وأعيد كل شيء إلى علبته ثم أضع العلبة في حقيبة يدي.

الأزرق لون مثالي للغرق

-14-

في طريقي إلى المنزل أشاهد مقطعًا على يوتيوب يشرح طريقة إزالة أحد الأكياس الدهنية من الوجه فتعجبني تلك الفكرة.

إذا كنت سوف أقوم بإحدى عمليات التجميل فعليّ أولًا أن أحاول نزعها بنفسي، لن يضرني الأمر في شيء. فإذا تغير لونها للون البني، حتى لو تركت ندبة صغيرة بإمكاني تجميلها، حتى وإن لم أستطع ذلك فستكون أفضل من بقعة خضراء مريبة الشكل.

قبل صعودي إلى المنزل أشتري مطهرًا من الصيدلية، كذلك بخاخ مخدر موضعي، وعلبة أمواس حلاقة وملقطًا جديدًا. ثم أمر بأحد محال الخردوات وأشتري منه إبرة طويلة خاصة بخياطة الأنتريهات.

أغلي بعض المياه وأضع الإبرة بداخلها ثم أتركها تبرد تمامًا، أطهرها بالمحلول المطهر، ثم أكرر الخطوات نفسها مع الموس والملقط.

أقف أمام المرآة، وأطهر مكان البقعة التي بدأت تأخذ شكلًا غريبًا، ثم أرش بعض المخدر، وأتركه نصف دقيقة ثم ألمس بشرتي بسن الإبرة، وعندما أجدني لا أشعر بأي شيء أخرج الموس وأحاول به إحداث شق في جلدي، أحدث شقًا بسيطًا ثم أدخل سن الإبرة في طرف الجلد محاولة إخراج أي إفرازات بداخل تلك البقعة، لكني لا أفلح سوى في إزاحة القليل من القشرة الخضراء، أحاول من جديد

حتى أنزع تلك القشرة الخضراء كلها تاركة بشرتي حمراء قليلًا، أطهر مكانها ما إن أنتهي ثم أضع فوقها لاصقة طبية عادية.

في اليوم التالي أستيقظ قبل موعدي بساعتين في مزاج جيد، لكن ذلك المزاج يفسد تمامًا عندما أنزع اللاصقة الطبية وأجد البقعة الخضراء ظهرت من جديد، مثلما كانت!

أصرخ في الحمام فيأتيني صوت خالتي من الخارج تحذرني من جديد بشأن العفاريت.

أنظر إلى سقف الحمام متضرعة وأنا أضم يدي: يا الله... الرحمة.

أخرج من الحمام مطأطئة رأسي، أضع لاصقة طبية من تلك اللاصقات التي أهدتني إياها فاطمة، ثم أرتدي ملابسي المعتادة، سروال أسود وقميص أزرق بلون السماء خصصته ليوم الخميس، اعتدت دائمًا ارتداء قمصاني وفقًا لترتيبٍ معين؛ ففي يوم الأحد أرتدي الأبيض، الإثنين الأحمر، الثلاثاء الأصفر الخردلي، الأربعاء الأسود، والخميس

آخر أيام الأسبوع أرتدي فيه دائمًا قميصي الأزرق ليذكرني بعطلتي الأسبوعية، ويجعلني أتحمل يومًا آخر في العمل.. إن هذا الترتيب أهم طقس في طقوسي الأربعة، أما فيما يخص الجمعة والسبت فأنا نادرًا ما أترك المنزل فيهما، لذلك لم أزعج نفسي بوضع لونين لهما، واكتفيت بجعلهما مثلي باهتين.

أترك منزلي دون إفطار، محاولة التفكير في إيجاد حل ما لتلك البقعة، هل أستطيع الاقتراض من أحد البنوك؟

أظن أنه في لبنان وربما كوريا الجنوبية يعطون قرضًا بهدف جراحة التجميل، هل بإمكاني أخذ قرض من أجل إجراء عملية تجميل؟

أفكر: ربما علي المرور بأحد البنوك قبل صعودي إلى العمل، وسؤالهم حول القروض الشخصية.

في الماضي كانت المكالمات البنكية تنهال عليّ بخصوص أخذ قرض شخصي لأن راتبي كان يُحول كل شهر على الحساب ذاته، لكن بعد تقليل عدد الموظفين؛ عدنا إلى الأظرف الورقية من جديد.

أدلف إلى أحد البنوك التي كان يحول على حسابها راتبي في الماضي، ثم أنتظر وسط طابور طويل حتى أقابل أحد المختصين بخدمة العملاء.

فتاة في بداية العشرينات، تبدو مثل مضيفات الطيران اللاتي أراهن في إعلانات "طيران دبي"، ترتدي قميصًا أبيضًا وسُترة كحلية تناسب لون تنورتها الضيقة القصيرة، تذهب وتأتي عدة مرات من أمامي تصور بعض الأوراق وتوقع البعض الآخر.

تروح وتجيئ هازة رأسها معتذرة لي قائلة: ثانية واحدة.

لكن تلك الثانية استغرقت ١٢ دقيقة من وقتي الثمين، لكني انتظرت وحاولت أن أكون مهذبة قدر الإمكان.

تجلس أمامي أخيرًا وهي تبتسم سائلة: كيف أستطيع مساعدتك.

أجيبها دون ابتسامة وأنا أعيد وضع نظارتي في مكانها: أرغب في أخذ قرض شخصي.

-هل أستطيع التشرف باسمك؟

أجيبها باقتضاب: أنيس.

- حسنًا يا أستاذة أنيس، هل أنتِ عميلة لدينا؟

- أنا كذلك.

أجيبها وأنا أفتش في حقيبتي وأخرج بطاقتي الشخصية، وكارت البنك.

تدخل بيانات الكارت في صفحة ما مفتوحة على حاسوبها ثم تقول:

- منذ حوالي ستة أشهر لم يُحول راتبك على الحساب.

- لقد قلصوا عدد الموظفين في شركتنا، بتنا نقبض رواتبنا في أظرف ورقية الآن.

تهز رأسها وهي تضرب بأصابعها فوق لوحة المفاتيح، ثم تعود لي قائلة:

- هل أستطيع سؤالك لماذا تحتاجين ذلك القرض الشخصي؟

أرفع حاجبي الأيسر سائلة: ألا تسمونه "قرضًا "شخصيًا"؟ لماذا ترغبين في معرفة شيء شخصي؟

تبتسم مجيبة: إنه ليس قرضًا شخصيًّا بمعنى الكلمة، إنه قرض يستخدم في شيء شخصي مثل شقة أو سيارة، أرغب فقط في معرفة إلى أي فرع ينتمي قرضك، وأيضًا كي نضمن جدية السداد، لأن العمليات على حسابك متوقفة منذ أكثر من ستة أشهر.

أهز رأسي قائلة: حسنًا.. هو قرض من أجل عملية.

تقطب جبينها: أظن أن هناك مؤسسات مختصة في هذا النوع من القروض، تابعة للتأمين الصحي للشركات أو العام حتى...

أقاطعها: إنها ليست عملية عادية، إنها عملية تجميل.

تنظر إليّ فاغرة فاهها ثم تروعها نظرتي الغاضبة وهي تسألني بارتباك: تجميل لأي شيء بالضبط؟

تتجول بنظراتها فوق جسدي في محاولة منها لاستكشاف الجزء الذي يحتاج إلى تجميل! وقتها يصل غضبي إلى ذروته وأصيح بها وأنا أقف: لماذا تسألينني سؤالًا شخصيًّا هكذا! ماذا إذا كنت أرغب في تكبير صدري؟ هل هذا شيء يجب عليك

معرفته؟!.. كل ما لديك الحق في معرفته هو بعض الأوراق الخاصة بعملي وبيان براتبي ومحل سكن دائم، لكن ليس من حقك أن تعرفي ماذا أرغب في عمله بتلك الأموال.

لم أتخيل أن صوتي قد ارتفع إلى درجة مرعبة إلا عندما أتى رجلٌ غريبٌ محاولًا تهدئة الوضع، لقد انفجرت الفتاة في البكاء بلا سبب واضح، بينما حاول مديرها تهدئتي قائلًا: نحن في غاية الأسف.

يشير بيده للفتاة كي تمسح دموعها ثم يسألني: أيًّا كانت المشكلة نستطيع حلها.. كيف أستطيع مساعدتك يا أستاذة...؟

أعدل من وضع قميصي وأنا أقول له بعدما أخذت نفسًا عميقًا: أنيس.. وأنا أرغب في أخذ قرض شخصي من أجل عملية تجميل..

أرمق الفتاة بنظرة، آخذ نفسًا عميقًا وأنا أرمق الفتاة متابعة: عملية تجميل لوجهي.

يضحك مديرها قائلًا: لكنك لست في حاجة إلى عملية تجميل! أنا لا أرى أي شيء في وجهك بحاجة إلى تجميل!

أصيح به: ماذا تقول!.. هل تتحرش بي الآن!.. أم عدم أخذ الأمور بجدية هي سمة هذا المكان!؟

يرتبك الرجل ولا يعرف ماذا يقول، لكني أتابع وأنا آخذ بطاقتي وكارت البنك قائلة: حسنًا بإمكانكما القلق الآن، لأنني سوف أشتكيكما في الفرع الرئيسي.

أقول هذا مشيرة بسبابتي تجاههما، ثم أتركهما وسط همسات رفاقهما.

-15-

تسألني ماريا ونحن نصنع قهوتنا الصباحية كالعادة: صحيح، هل ستأتين لإفطار الشركة يوم السبت؟

- أي إفطار؟

تمسك بهاتفها وتُريني إحدى الرسائل القديمة: بعد غدٍ موعد إفطار الشركة الرمضاني السنوي.

رغم تجنبي الذهاب إلى حفلات الزفاف وأعياد الميلاد الخاصة بزملائي؛ لأنني ببساطة لا أحب الأماكن المزدحمة إلا أني أواظب على حضور أي غداء أو عشاء يخص الشركة، لعدة أسباب: الأول أنه بأمر من المدير؛ لهذا لا أحب أن أكون الشخص الوحيد الذي لا يحضر، والسبب الثاني هو أنه يكون عادة في أوقات العمل، ولا أدري ماذا أفعل في هذا الوقت الفارغ المفاجئ، لكن ذلك الإفطار سيكون في عطلتي الأسبوعية المقدسة، لذلك لا أشعر بالحماس، فيكفيني ظهور تلك البقعة من جديد اليوم، وشجاري الصباحي في البنك، إنه أسوأ خميس على الإطلاق، أرغب فقط في البقاء بمنزلي، ومشاهدة فيلمٍ وثائقيٍ عن العلاج الجيني.

أسأل ماريا: هل سيسمح لنا بالتأخر يوم الأحد إذن؟

تجيبني: ربما، كما أن الطعام لطيف ومجاني.

- لا أستطيع تمييز اسم المطعم، هل جربته من قبل؟

تجيبني ماريا واصفة المطعم: "فانسي"...

عاجزة عن إيجاد مرادفٍ في معجمها الكلامي المحدود.

- لا أجد معنى لإقامة إفطار لشركة لا يصوم بها من الأساس سوى ثلاثة، المدير نفسه لا يصوم!

تجيبني ساخرة: دعيهم يتظاهرون.. جميعهم يأكلون أو يدخنون.. أتعلمين تلك الفتاة السمراء في قسم الفيديو، لم تصم يومًا واحدًا العام الماضي، كلما سألتها كانت تجيبني بأنها في وقت دورتها الشهرية.

- لماذا تسألينها إذن؟ هذا محرج جدًا.

- هي من سببت لنفسها الإحراج، لم يكن هناك أي داعٍ قبل رمضان أن تعطي لنا محاضرة عن فضل الصيام وأن من يرغب بأن يصير مفطرًا، فقط لا يريها وجهه ولا يأكل أمامها، وكأنها طفلة.

- فهمت...

تضحك ماريا على نكتة في رأسها وهي تقول من بين ضحكها المُجلجل: ليتك رأيتِ وجهها كلما سألتها.. آه.. لا أستطيع وصفه لكِ.. باتت تتجنب الأكل أمامي الآن لكنها تأكل في الحمام!

- لماذا تفعل؟.. أنتِ لا تصومين أيضًا ما المخجل في الأمر!

تسحب نفسًا من سيجارة جديدة وتقول: لأنها تشعر بالإحراج أمامي.. تظنني مسيحية!

أضحك معها، لكن ضحكتي تتلاشى عندما أفكر فيما فعلته ماريا، وتلك التسلية التي تشعر بها عندما يظنها الناس مسيحية، لم تكن مهتمة كثيراً لكيف يراها البشر على عكسي، لقد كنت أحاول طوال الوقت إخفاء الأمر، التلاشي، أن أصبح غير مميزة كي أشعر فقط بالقليل من الانتماء.

تقاطع ماريا أفكاري قائلة: حسنًا على كل حال لو قررت المجيء بإمكانك مراسلتي، ونقتسم سويًّا أجرة الأوبر.

أهز رأسي عالمة أنه من رابع المستحيلات أن أذهب إلى ذلك الإفطار، لست متحمسة للعودة مساءً في زحمة ما بعد الإفطار يوم الإجازة.

أترك المطبخ وأذهب لأنهي بعض مهام عملي، بينما يوسف يذهب ويجيء من أمام مكتبي مختالًا كطاووس.

تجلس فاطمة بجواري وأمامها قائمة خاصة بمطعم مشويات.

تنظر نحوي وتسألني: أفكر في تناول إفطاري في هذا المطعم. هل جربته من قبل؟

- لا أعرف حقًا، لم أجربه من قبل، فأنا نباتية.

تتنهد بأسف قائلة: لقد أخبرتني سوزان بذلك، معذرة.. أرجو أن يكون مطعمًا نظيفًا، لقد أصابتني نزلة معوية بسبب تناولي البقدونس في أحد محال المشويات ذات يوم، لم يكونوا يغسلون الخضراوات هناك.

أسألها بتعجب: لم أر شخصًا يتناول البقدونس في محل المشويات من قبل، في العادة يتركونه ويأكلون اللحم.

تهز كتفها قائلة: لا أدري لماذا يتركه الناس، إنه مفيد للغاية ويعطي نكهة قوية للمشويات، لكنهم يأخذونه كشيء مسلم به نظرًا لقلة ثمنه.

أهز كتفي قائلة: إنها الطريقة التي يتعامل بها البشر مع الأشياء المجانية، الحب كذلك.

تقول بجدية: لهذا أنا أقدر تلك الأشياء كثيرًا.

تصمت قليلًا ثم تقول: صحيح.. لقد تذكرت.

تخرج من درجها ثلاثة أقنعة خاصة بالوجه كُتب فوقها بلغة غريبة أظنها صينية ثم تضعها أمامي.

أحد الأقنعة بالحلزون، والآخر بالتوت البري، والأخير بالشاي الأخضر.

ألتفت إليها سائلة: ما هذا؟

تجيبني بابتسامتها المعتادة: إنها أقنعة كورية للوجه، أشعر أنك تحبين الاهتمام بوجهك.

- ولماذا تهديني تلك الهدايا؟

لا تختفي ابتسامتها وهي تجيبني: لقد اشتريت كمية كبيرة وأعطيت بعضها لفتيات المكتب، ظننت أنك ستحبين هذا.

- لماذا تبتسمين في وجهي؟ ما المضحك؟

تختفي ابتسامتها: أنا شخص لطيف، إذا كانت لديك مشكلة في تقبل لطف الآخرين فعليك أن تتخطي الأمر، هناك بعض الأشخاص - ويا للمفاجأة - لطفاء دون سبب!.. ينبغي أن تكوني ممتنة للأشياء المجانية التي تعطيها لك الحياة دون سبب أيضًا.

أدير وجهي دون أن أجيبها، وأنظر إلى حاسوبي واضعة السماعات في أذني. أرمق الأقنعة الآسيوية بنظرة طويلة ثم أضعها في حقيبتي.

***

أعود إلى منزلي بعد ذلك اليوم الطويل، أفتح باب الشقة، لكني أفاجأ بالشخص الجالس مع خالتي، يظهر لي نصف وجهه الذي لم أنسه يومًا وإن أصابه الكِبَر.

يلتفت نحوي فأغلق الباب في سرعة، وأركض نازلة سلالم العمارة، أخرج إلى

الشارع، ولا أتوقف عن الركض حتى أصل إلى محطة مترو الأنفاق التي تبتعد عن المنزل بمسافة ٢٠ دقيقة.

أقف أمامها عاجزة عن فعل أي شيء، ولا أدري أين يمكنني الذهاب.

أخرج هاتفي وأرسل لماريا رسالة عبر الفيسبوك سائلة: هل أنت متفرغة؟

تجيبني في اللحظة ذاتها: أشاهد أحد الأفلام الوثائقية عن مشاهير السوشيال ميديا.. من بطولة باريس هيلتون! تصوري!

- هل بإمكانك مقابلتي؟

- ما رأيك أن تأتي إلى منزلي؟

- أرسلي لي موقعك.

أفتح الرابط الذي أرسلته لي لأجد موقعها في "العجوزة" لحسن الحظ أن هناك حافلات تذهب إلى هناك، قد يستغرق الأمر مني ٣٠ دقيقة في الوصول إليها.

أركب الحافلة الأولى التي تمر من أمامي ذاهبة إلى "العجوزة" غير عابئة بعدم وجود مكان للوقوف من الأساس.

أصل في خلال ٤٠ دقيقة إلى عمارتها، التي تقع بالقرب من الكورنيش.

أرسل لها: في أي طابق تسكنين؟

- الخامس، الباب الأحمر بجوار السلم، لا يوجد مصعد.

- لا عليك، ليس هناك واحد في عمارتي أيضًا.

أصعد الطوابق الخمسة، ثم أطرق الباب لتفتح لي ماريا في ملابس لا تفرق كثيراً عن ملابس العمل، قميص واسع طُبعت فوقه أشكالا غريبة، وبنطال فضفاض قطني.

تسألني ما إن ترى وجهي: هل أنتِ بخير؟.. ماذا حدث؟

تفسح لي مجالًا للدخول، أخلع حذائي بجوار الباب، وما إن أدخل حتى أرى يوسف يجلس في صالة منزلها أمام جهاز البلايستيشن، يرتدي ملابس العمل ذاتها.

أصيح غير مصدقة: ماذا!

يلتفت نحوي لأرى في فمه كيسًا من اللوليتا المثلجة. يعود للنظر أمامه مطلقًا سبابًا بعدما تلقى طلقة نارية في لعبته.

ألتفت نحو ماريا التي تجذبني من ذراعي نحو غرفتها، أسألها: ماذا يفعل هنا؟

- يرغب في ترك شقته، لأن رفيق سكنه يسرق أشياءه، عرضت عليه أن يأتي ليعاين إحدى الشقق الشاغرة في العمارة، ودعوته للغداء أيضًا، كانت سوزان سوف ترافقه لكن طرأ شيء في اللحظة الأخيرة فاعتذرت.

أقول بغضب: لماذا لم تخبريني إذن؟

- في الحقيقة لم أتوقع أن يصل في موعده، وبعد اعتذار سوزان بدا الأمر مريبًا، كان على وشك الانصراف عندما علم أنك آتية، أخبرته أن بإمكانه الانتظار ليتناول الغداء معنا وهذا ما حدث... ولكن الأهم من ذلك ماذا حدث؟

تزيح كومة ملابس من فوق سريرها لتسقط أرضًا، ثم تربت بجوارها فوق السرير مشيرة لي بالجلوس.

أجلس بجوارها بينما ترفع قدميها فوق السرير وتبدأ في وضع طلاء لأظافرها أحمر اللون.

أجيبها باقتضاب: لقد عدت إلى المنزل لأجد والدي هناك، فخرجت مسرعة، أعتذر عن كوني أتيت فجأة.

- بإمكانك المجيء في أي وقت ترغبين.

يرن هاتفي برقم خالتي فلا أجيبها، مغيرة وضع نغمة الرنين إلى صامت.

بعد محاولتها للاتصال خمس مرات تُرسل رسالة تخبرني فيها أن والدي قد ذهب.

تنظر ماريا إلى هاتفي فأقول لها: إنها خالتي، تخبرني أن والدي ذهب، أنا أعيش مع خالتي، لم أخبرك بهذا من قبل.

- وأين والدتك؟

- ماتت منذ كنت في التاسعة تقريبًا، خطأ طبي أثناء عملية استئصال للزائدة.

تقول ماريا مدهوشة: ماذا!

- قد تموتين لأي سبب تافه.

- لماذا لا تعيشين مع والدك إذن؟

- بعد وفاة والدتي كان سيتزوج خالتي لتعتني بي، ذهب لشراء محابس الزفاف وأنا في العاشرة لم أره منذ ذلك الوقت حتى الساعة الماضية.

تطلق سبة ما بالإنجليزية لا أتمكن من فهمها، ثم تتابع: وكيف قبلت خالتك بذلك؟ أن تدخله المنزل؟

- إنها تحبه منذ الأزل، قالت لي إحدى قريباتنا عندما كنت صغيرة أنه خطط لخطبة خالتي، لأنها صديقة أخته في المدرسة، وكانت تتردد عليها كثيرًا، وعندما جاء إلى المنزل لطلب يدها من جدي رأى أمي؛ فطلب يد أمي!

- لم أر في حياتي هراء كهذا!

- إن تلك الأشياء فقط تحدث.

تقول ماريا بأسف وقد انتهت من طلاء الطبقة الثانية من أظافرها: مسكينة خالتك.

- إنها مسكينة حقًا، لكن بنسبة ما أنجاها الله منه، إنه فقط ليس شخصًا

صالحًا، لقد تسبب في وفاة والدتي لأنه لم يدخلها مستشفى أفضل، لكني أحاول أن أنظر إلى الجانب المشرق من الأمر فوفاتها جعلته يختفي من حياتي.

تهز ماريا رأسها دون تعليق.

أسمع صياح يوسف من الخارج يقول: ماريا لقد وصل الطعام.

تلكزني ماريا بكوعها قائلة: هيا بنا.

نجلس أمام طاولة مربعة لها أربعة كراسي، أتخذ ركنًا بعيدًا، بينما تضع ماريا أمامي علبة من الأكل الصيني وهي تقول: لا تقلقي إنها خضراوات فقط.

يسأل يوسف ماريا: ولماذا عليها أن تقلق؟

تجيبه ماريا: أنيس لا تأكل اللحوم.

يهز رأسه علامة على الفهم ثم يعود ليقول لماريا: اسأليها إذا كانت ترغب في بعض الكولا.

- ولماذا لا تخبرها أنت بذلك؟

- لقد طلبت مني تجنبها، لهذا أنا أفعل.

- كان بإمكانك فقط أن تذهب عندما علمت أنها آتية لا أن تضع نفسك في هذا الموقف المحرج!

أقاطعهما وقد ضقت بحديثهما عني وكأني غير موجودة: لقد طلبت منك هذا لأنك تستخف بحديثي.

ينظر إلي متعجبًا ويقول بدهشة: أولًا أنا لم أفعل، ثانيًا أنتِ لم تعطني فرصة لتوضيح الأمر.

تهز ماريا رأسها ثم تذهب لإحضار المشروبات.

أقول بتصميم: لأنك سخرت مني.

يجيبني صائحًا: لم أكن أسخر!

أسأله بعصبية: ماذا كنت تفعل إذن!

يقول بعصبية مماثلة: كنت أغازلك، لقد بدوت لطيفة للغاية في ذلك الوقت، لكني آسف على ذلك فأنت شخص لا يطاق.

تخرج ماريا من المطبخ محضرة زجاجات من الكولا وهي تقول بإنجليزيتها بملل: بربكما احصلا على غرفة.

أشعر بالاحمرار يغزو وجهي، بينما يتمتم يوسف وهو يفتح علبة طعامه: نحصل على غرفة كي أرتكب جناية قتل.

أفتح علبة طعامي بدوري متناولته، تقول ماريا وهي تفتح علبتها: أتعلمين، يوسف يكره أن يدعوه أحد "جو".

يقول يوسف بغضب محذرًا: لا تدعيني أبدًا بهذا الاسم!

تتجاهله قائلة: ليتك رأيت صورة بطاقته!

أبتلع طعامي ثم أُعلِّق: لا أدري لماذا يتحرج الناس من صور بطاقاتهم! لقد اتفقت الدولة على جعلنا قبيحين.. فليكن إذن!

يقول يوسف متبجحًا: إذن هل يمكنني رؤية بطاقتك؟

أرمقه بنظرة نارية قائلة: لا.. لا يمكنك ذلك.

يشير نحوي قائلًا لماريا: انظري! إنها تكيل بمكيالين!

لا تفهم ماريا الجزء الأخير من جملته لكنها لا تهتم كثيرًا.

أوضح قائلة بهدوء: لا، الأمر ليس له علاقة بصورتي، له علاقة باسمي، أنا أكره اسمي، وأكره اسمي بجوار اسم والدي، أنا أكره والدي على كل حال.

تجيبني ماريا: بإمكاني رؤيتها، أنا لا أستطيع قراءة العربية على كل حال.

أوافقها قائلة: نقطة جيدة.

يقول يوسف: حسنًا، هل اسم والدك أنثوي مثل إيمان؟ أو صفاء؟ أو ثناء؟

أجيبه نافية: لا!.. إنه اسم ذكوري، لكن وجوده بجوار اسمي يسبب مشكلة.

تبدأ ماريا في محاولة معرفة اسم والدي، ساردة كل أسماء أصدقائها المثيرة للسخرية، وعندما يعداني بأنهما لن يستخدما ذلك ضدي.. أخبرهما.

- منصور.

تسأل ماريا: ماذا إذن؟

أردد بتوتر: اسمي أنيس منصور!

يهز يوسف رأسه بعدم فهم: لا أدري ما المشكلة؟

أنظر إليهما قائلة: ألم تعيشا في مصر أبدًا؟

يقول يوسف بنفاذ صبر: لا أدري أين النكتة في الاسم لكنه اسم عادي، أعرف أن أنيس يبدو ذكوريًّا قليلًا لكن لا بأس به.

أتنهد قائلة: إنه اسم أحد الكتاب، كاتب شهير، كنت أتعرض للكثير من المضايقة بسببه في صغري، من المدرسين على وجه الخصوص، ضحكات سمجة وأشياء من هذا القبيل.

تقول ماريا: لا تدعي هذا يضايقك، هيا تناولي طعامك قبل أن يبرد.

بعد تناول الطعام نشاهد فيلمًا قديمًا يدعى "Hiroshima Mon Amour" أنعس في منتصفه فوق كتف ماريا، أستيقظ لأجد الساعة العاشرة مساءً فأودع ماريا كي أعود إلى المنزل، بينما يهم يوسف بالانصراف أيضًا.

يستوقفني يوسف متحدثًا عن عودتي إلى المنزل وحدي ثم يعرض عليّ إيصالي إلى المنزل.

تجبرني ماريا على العودة معه وهي تغريني بالسيارة المكيفة والمواصلة المجانية، وزحمة ليالي الخميس؛ فأوافق على مضض.

أكتشف أنه يملك سيارة جميلة حقًا، أنيقة ونظيفة، لكني لا أدري ما نوعها.

يفتح لي الباب، ثم ينتظر ركوبي كي يغلقه خلفي، تفاجئني طريقته المهذبة؛ ففي حياتي لم يفتح أحدهم لي باب سيارة قط!

نجلس سويًّا في السيارة وأرسل له رابط الطريق إلى منزلي عبر واتساب بعدما نتبادل أرقامنا.

أقول قاطعة الصمت: لم يكن عليك فعل هذا، أنا معتادة على العودة وحدي.

يجيبني بنبرات تحمل ضيقًا: أعرف، لكنك عرضة للمضايقة.

- وهل وجودك معي سيمنع الآخرين من مضايقتي؟

يرمقني بنظرة سريعة ثم يعود إلى التركيز على الطريق: نعم، سيمنع عنكِ المضايقات.

أقول مخالفة رأيه: لقد تحرش بي أحدهم وأنا برفقة رجل من قبل.

يسألني: وكيف انتهى الأمر بذلك المتحرش؟ مسجونًا أم في أحد المستشفيات؟

ألتفت نحو النافذة إلى جواري ثم أجيبه: لم يحدث له أي شيء.

- كيف هذا؟

- لم يحدث له أي شيء، لقد أمسك بي من الخلف، ثم ركض سريعًا، بينما لم أعرف ماذا أفعل سوى الصراخ قائلة "يا حيوان، يا زبالة".

أشعر بالغضب في صوته وهو يسألني: وماذا فعل ذلك الشخص الذي كنتِ معه؟

أجيبه دون أن ألتفت نحوه: أخبرني أن صياحي يدل على قلة أدبي، ثم انفصل عني بعدها!

- أحا!

ألتفت نحوه لأجده ينظر نحوي عاجزًا عن التعبير، فلا أتمالك نفسي من الضحك.

- هذا ليس مضحكًا، أخبريني أن هذا غير حقيقي.

أهز كتفيّ قائلة: أنا لا أكذب في محاولة لإثارة شفقتك، لا تقلق فأنا لا أشعر بالشفقة على نفسي، وقتها ظننت أني السبب حقًا في حدوث ذلك، وأن صوتي العالي يدل على قلة تهذيبي، لكني لست كذلك الآن، على كل حال لا يهم الأمر، فأنا انقطعت عن الخروج في مواعيد غرامية منذ تلك الحادثة، في الحقيقة لقد ظللت لفترة طويلة في المنزل لا أستطيع الخروج منه.

يهز رأسه بتفهم، ثم يعود ليسألني: متى كان ذلك الموعد؟

- كنت وقتها في التاسعة عشرة، اممم ستة عشر سنة، نعم.. لم أخرج مع رجل في موعد بعد ذلك.

ثم ساد الصمت طوال الطريق.

-١٦-

يوم السبت أقرر الذهاب إلى ذلك الإفطار. أرتدي بلوزتي السوداء التي طبع فوقها صور لحشرات متعددة، وتنورة سوداء تصل إلى منتصف ساقي خاصة بخالتي، وحذائي الأسود ذي الكعب متوسط الطول ثم أذهب إلى الكوافير المجاور للمنزل.

عندما أدخل أجده مزدحمًا، تسألني إحدى الفتيات: هل أستطيع مساعدتك في شيء؟

- أريد فرد شعري.

- هل تحتاجين إلى غسله؟

- نعم.

- حسنًا، تفضلي معي.

تجلسني الفتاة فوق أحد المقاعد ثم تبدأ في غسل شعري بأحد الأحواض.

تقول لي: ألا ترغبين بتشقير أو إزالة الشعر الزائد من حاجبيك؟

أفكر قليلًا ثم أسألها: هل يبدوان بشكل سيئ؟

تبتسم قليلًا وتقول هامسة: في الحقيقة المشكلة ليست في حاجبيك، المشكلة في منطقة الشارب.

أقول محرجة: هل يبدو ظاهرًا حقًّا؟

تهز رأسها.

أسألها: كم سيكلف؟

- عشرين جنيهًا.

- حسنًا إذن...

تعود لسؤالي: هل ترغبين في طلاء للأظافر؟ ربما بعض المكياج الخفيف؟

- لا أدري لا أريد أن أدفع مبلغًا كبيرًا.. هل لديك لون أزرق؟

- ليس لدي أزرق، ولكن دعيني أختار لك لونًا رقيقًا، سوف أقدم لك خصمًا جيدًا.

- اتفقنا.

تطلي فتاة ما أظافري بينما تفرد أخرى شعري؛ فأشعر كأني ملكة.

اختارت الفتاة اللون الأبيض والشفاف لتضعه فوق أظافري بطريقة يسمونها "فرنش"، مما جعل أصابعي تبدو جميلة حقًّا.

أخرج من الكوافير وأنا أبدو شخصًا مختلفًا.. جميلًا وأنيقًا، بشعر مفرود يغطي كتفيّ بعدما قصت أطرافه، ووجه ناعم بزينة خفيفة جعلت اللاصقة الطبية غير ملحوظة.

أوقف تاكسي ما فلا يتردد في توصيلي!.. إنه من المذهل حقًّا ما تفعله الوجوه الجميلة في البشر.

أصل إلى المطعم فيُعَلِّق بعض زملائي الرجال على مظهري للمرة الأولى.

أجلس بجوار ماريا التي تقول: واو! تبدين مختلفة!

أقول لها: أنفقت ثلاثمائة جنيه كي أبدو هكذا.

- عليك إنفاق المزيد على نفسك يا فتاة.

- يبدو أنني سأفعل!

أرى يوسف جالسًا بجوار سوزان، لم يرفع عينيه حتى ليرمقني بنظرة واحدة.

أطلق ضحكة ساخرة صغيرة، ماذا كنت أتوقع على كل حال!.. إنه لا يبدو مختلفًا عن الآخرين.

تهمس ماريا لي: إنها طاولة المدراء، كان يجلس إلى جواري منذ دقائق لكن سوزان أصرت أن يجلس إلى جوارهم.

أقول لماريا كاذبة: أنا لم أكن أنظر نحوه، لقد كنت أبحث عن إنجي.

- حالة والدها الصحية متدهورة، لم تستطع القدوم.

- هذا مؤسف.

- تعلمين ما المؤسف أكثر؟ أن تضطر لترك والدها وحضور اجتماعات، والعمل حتى من المستشفى.

أهز رأسي شاعرة بالأسف، فأنا لا أعرف أي شيء عن زملاء عملي، لم أفكر يومًا في تقديم الدعم لأحدهم، أو حتى السؤال عنه من أجل السؤال فقط.

لكني أتراجع عن تلك المشاعر، فليس هناك منهم من يهتم بي، كأن يهتم حقًا.. ربما ماريا.. لكن طوال تلك السنوات لم يكن هناك من يهتم حقًا بأن يكون صديقي.

- أترين تلك المرأة الجديدة الجالسة بجوار المدير؟

أدير رأسي ناظرة نحو المرأة التي تتحدث عنها ماريا؛ فتقول: إنها "ماجي" الشيف الجديدة، سوف تبدأ عملها منذ بداية الشهر، وتتولى القسم الخاص بالمطبخ كله.

أسألها بقلق: ماذا حدث للينا؟

تضحك ماريا بتسلية وهي تجيبني: مشكلتك أنك لا تظلين لوقت أطول بعد ساعات العمل، لم أستطع الحديث معك في الأمر أمام يوسف على كل حال، لقد استقالت لينا، أو لم تستقل بالمعنى الحرفي.

تسكت ماريا للحظات متوقعة مني أن أفهم مغزى كلامها.

- ثم؟ هل تتوقعين مني فهم ما تقولين؟

- يوم الخميس الماضي أتت إنجي بعد ساعات العمل من أجل مقابلة عاجلة مع لينا، دخلت كالعاصفة دون أن تلقي سلامًا، بدت مجهدة وشعرها منفوش كأنها استيقظت للتو، رغم أن علامات الإجهاد كانت واضحة جدًا فوق وجهها. توجهت نحو الغرفة الزجاجية لتجد لينا جالسة مع المدير، ثم بدأ الصياح في التصاعد، لقد قالت لينا أنها بحاجة إلى مساعدة في التصوير، وأنها لا تستطيع الطهي كل يوم، وعندما أخبرها المدير أن الجميع يعمل كل يوم قالت له أنها ليست مثل الجميع، أو على الأخص ليست مثل من يعملون في قسم الفيديو الذين يجلسون فوق مؤخراتهم، طلب المدير منها الاعتذار، لكن قبل أن ينهي جملته انطلقت إنجي مدافعة عن قسمها؛ قذفتها بمنفضة السجائر، وأخذت تصرخ بجنون.

أقول بسخرية وأنا أمسك قائمة الطعام: أرجو أن يكون هذا لقنها درسًا؛ كيلا تستخف بوظائف الآخرين.

وقبل أن أتمكن من اختيار ما أطلبه أجد النادل وضع أمامي أنا وماريا طبقًا عملاقًا من السوشي.

تقول ماريا بمرح: أخيرًا! لقد طلب المدير الطعام منذ أكثر من ساعة ونصف.

أنظر إلى الطبق بتمعن لأجد كل أصنافه تحتوي على سمك!

- ما هذا؟

- ماذا؟

- إنه سوشي!

- المطعم يُدعى كرانشي رول! ماذا تتوقعين!

أهز رأسي في محاولة مني للتوضيح: لا يوجد به شيء نباتي، لماذا لم يطلب لي أحدهم شيئًا نباتيًا؟!

- لا أدري، عندما أخبرتني أنك لا تتناولين اللحوم ظننتك باسكاتيريان!

- لا، أنا لا أتناول السمك أيضًا!

- حسنًا بإمكانك أن تكوني كذلك اليوم! هل أكلت السوشي من قبل؟

- لا، لم أجرب السوشي من قبل في سنواتي الخمسة والثلاثين.. ماذا أفعل إذن! لن أكتفي بتناول قطع الجزر والخس والخيار من فوق حافة الطبق!

أشعر بالغضب يستعر بداخلي، لماذا لم يسألني أحدهم عما أرغب في تناوله؟ لماذا لم يرسل لي أحدهم رسالة؟

أقف ثم أتوجه ناحية طاولة المدير. أقف أمامه ليتوقف عن الكلام شاعرًا بالغرابة، وترتفع نظرات يوسف، تثبت فوق وجهي وقد اتسعت حدقتاه قليلًا.

آخذ نفسًا عميقًا ثم أقول بهدوء: أقل درجة من درجات الاهتمام بالموظفين هي سؤالهم عما يرغبون بأكله على الأقل.

يتوقف الجميع عن تناول الطعام وأشعر بنظراتهم تخترقني.

يتردد المدير في الإجابة: لم أجد اعتراضًا عندما أرسلت رسالة إلى المحادثة الجماعية الخاصة بنا وقلت أنني سوف أطلب أطباقًا متنوعة.

- حسنًا إذن أنا لست جزءًا من تلك المحادثة، في الحقيقة لم يهتم أحدهم

بإضافتي فيها، لكن دعنا نتجنب كوني موظفة منذ خمس سنوات تقريبًا ولم يضعني أحدهم في أي محادثة جماعية تخص أي شيء؛ لماذا لم يفكر أحدهم في طلب شيء نباتيّ لي؟.. ممن يعرفون أني نباتية؟

تجيبني سوزان وقد أخذت على عاتقها الدفاع عن الجميع: ما المشكلة؟.. كان بإمكانك طلب بعض الأطباق النباتية دون إثارة أي جلبة، لماذا تعطين الأمور أكبر من حجمها.

أجيبها بتبجح: أنا لا أتحدث إليك الآن.

أتابع كلامي في وجه المدير: ذلك النوع من التهميش وقلة القيمة لا أقبل به.. هذا غير مقبول.

يقف المدير مادًا يده ليضعها على كتفي في محاولة منه لتهدئتي غير عالم كيف يفترض به التصرف: أنا أتفهم غضبك، حقًا، نحن هنا كي نستمتع بوقتنا معًا، وليس على أحدنا أن يشعر بالضيق أو عدم الراحة، سأجعلهم يحضرون لكِ شيئًا مميزًا.

أقول له بنبرة تحمل بعض التهذيب وأنا أبتعد قليلًا مما يجعله يرجع وينزل يده من فوق كتفي: شكرًا لك.

ألقي نظرة أخيرة على وجه يوسف لأجده ينظر تجاهي ببرود فأرد له النظرة ذاتها ثم أعود إلى مكاني.

تنظر ماريا في اتجاهي قائلة وقد اتسعت عيناها: ماذا حدث؟

- لقد اعتذر!

- هذا نادر!

بعد ٢٠ دقيقة عاد النادل ومعه طبق كبير مملوء بأنواع غريبة من السوشي النباتي، وقد حشاه بالخضراوات والجبن الكريمي والبيض المقلي وزينه بأعشاب البحر، وإلى جواره طبق من الحساء الغريب.

عندما سألته ما هو؛ أخبرني أنهم صنعوا لي حساءً يابانيًّا يُدعى الـ"ميسو"، وقد صنعوه نباتيًّا باستخدام مرقة الخضراوات ومكعبات التوفو، وأوراق نبات الواكامي.

أخرج مذكرتي الصغيرة لأدون اسم النبات واسم الحساء كي أشاهد عنهما فيلمًا وثائقيًّا عندما أعود إلى المنزل.

بينما انصرف النادل ليعود بعد دقائق بدلو عملاق من عصير وردي اللون يُدعى "بينك ليمونيد" وبداخله ماصة حلزونية عجيبة!

في العادة كنت أطلب عصير البرتقال، أو عصير الليمون ومعه القليل من أوراق النعناع الطازجة، أو أكتفي بكوب ماء مثلج وبعض شرائح الليمون، لم أكن أبدًا لأجرب أي نوع من أنواع العصائر الغريبة.

أتمالك نفسي كيلا أخرج هاتفي وألتقط صورة لمثل هذا الاكتشاف، فهذا على ما يبدو سلوكٌ غير لائق أن يصدر من امرأة في مثل عمري.

أنهي عشائي اللطيف والعصير المُبجل، ثم أعود إلى المنزل طافقة أبحث عن تلك الوصفة السحرية لليمونادة الوردية! لأجدها في النهاية: عصير ليمون وسكر وعصير توت بري!

بالطبع لن أشتري سيرب التوت، أو عصير التوت المعلب، لكونهما يحتويان على سكر صناعي، ولن أضع السكر أيضًا، ربما القليل من العسل مكانه.

إن سعر علبة التوت البري الطازج توازي سعر طعامي لمدة أسبوع، بينما التوت المصري أبيض اللون، وطعمه حُلو وليس لاذعًا. رُبما علي استبداله بالفراولة، فهي تنتمي لعائلة التوت.. أيضًا رخيصة وستعطي الطعم ذاته تقريبًا.

أبتهج للفكرة، وقد علمت أن الليمونادة الوردية ستكون رفيقتي طوال الشهر

القادم، مع طبق من الفشار المصنوع بقطعة صغيرة من الزبد أو ملعقة من زيت جوز الهند.. إنها وجبة خلاصي من كل أعباء الحياة، عندما أفتح نافذة غرفتي الصغيرة، وأجلس في سريري أمام شاشة حاسوبي لمشاهدة أحد الأفلام.

أبدأ في الاستعداد للنوم، مفكرة في استخدام إحدى ماسكات فاطمة بعد تنظيف وجهي من المكياج.

أنزع اللاصقة الطبية المستديرة لأجد أن شكل البقعة اكتمل مشكلًا صليبًا!

أصرخ منادية خالتي التي تأتي مهرولة من مطبخها، ألتفت نحوها لأريها وجهي وما أن ترى الصليب حتى تُزغرد!

تنهمر دموعي وأنا أصرخ بها: لماذا يحدث هذا لي.. لماذا؟!

- إنها بركة ربنا.. ترين!

تتركني وتخرج وهي تتلو صلواتها بينما أحاول تنظيف وجهي وأنا لا أكف عن البكاء، حتى أتوقف مع صوت طرقات فوق باب الشقة، التي تتجاهله خالتي؛ فأذهب لأفتح الباب.

أمر بالمطبخ لأجدها تقف صانعة خلطة ما للمحشي كما تبدو رائحتها، هي تدندن بإحدى أغاني أم كلثوم.

أفتح الباب لأشعر بضربات قلبي تبلغ حنجرتي وأنا أرى والدي أمامي.

-17-

قرأت قصة يومًا ما تقول أن هناك برتقالة تمكنت بشكل ما من ترك صندوق فاكهة موجود في أحد الأسواق، ثم تدحرجت خارجه، تاركة المكان خلفها، هاربة من مصيرها؛ وبنفس يملأها الأمل اتبعتها بيضة.

طوال حياتي كنت أضع تلك القصة نصب عينيّ، لا أرغب في أن أصبح تلك البيضة، أعلم جيدًا أني مختلفة عن الآخرين، أحاول ألا أقارن نفسي بهم قدر الإمكان.

لكني لم أفكر أبدًا أني قد أكون تلك البرتقالة التي ترغب في تغيير مصيرها، لمرحلة طويلة من حياتي حاول أبي إقناعي أنني تلك البيضة، ظننت يوم رحل أني ربحت حريتي، لكني لم أقفز خارج ذلك الصندوق قط؛ لهذا كان عليه أن يجدني عندما يعود.. وقد عاد الآن.

أتسمر في مكاني وكلي رهبة، لم يتغير كثيرًا، ما يزال نحيفًا، شعره لامع وإن شابه القليل من البياض، وجهه غزته التجاعيد لكنه ما يزال وسيمًا، أنا أكره الرجال الوسيمين حقًا، وأكره ذلك الوجه الذي أرغب بتقطيعه الآن.

ترتجف يدي وهي ممسكة بباب الشقة، أرغب في غلقه في وجهه، لكني لا أستطيع.

يقول مبتسمًا بنبراته العميقة: لقد مر زمن طويل.

يعجز لساني عن الحديث، أشعر بثقل في كل أطرافي، أنفاسي بطيئة وكأن أحدهم منع عني الأكسجين فجأة.

أحتاج إلى أن أكون في المطبخ الآن، أختفي من أمامه متعللة بعمل كوب شاي لأمي، لثلاثين ثانية فقط.. أقلب كوب الشاي لثلاثين ثانية فقط أرتب خلالها عالمي، وأرتاح من عاصفته القادمة.

- ألن تدعيني للدخول؟

يسألني آمرًا وقد بدأت عيناه تمتلئان بالغضب، إنه الغضب ذاته، الغضب القديم ذاته.

عندما لا أتحرك يصيح باسمي: أنيس!

يرتجف جسدي كله، لأعود طفلة من جديد، طفلة ترتدي اللون البني دائمًا، وقد حُرِّم عليها ارتداء أي لون آخر، طفلة غارقة في بولها بعد كل علقة، وكل حرق.

طفلة تركها والدها بملابس مدرستها واختفى، باع شقة الطفولة، وتخلص من كل محتوياتها في أقل من يوم.

لا تقوى ساقاي على احتمال وزني وأسقط أرضًا زائغة البصر، يركع إلى جواري محاولًا الإمساك بي مما يجعلني أفزع صارخة بقوة وأنا أتراجع زاحفة داخل المنزل حتى ألتصق بالحائط، وتبدأ قدماي في التشنج، وأصابعي في الالتواء شاعرة بالألم القديم ذاته، ألم الوقوف لساعات طويلة أمامه وهو يعنفني، سماعي لتقريعه منتصبة غارقة في لحيته وشعرته البيضاء دون أن أقدر على الاتكاء أو الجلوس وإلا نالني خرطومه، آلام القدمين والساقين غير المنقطعة، وجلوسي أرضًا بعدها

ثانية مشطي قدميّ للأمام والخلف وأبدأ في العد.. يسكن الوجع بعد ألف عدة.

لكن لساني ثقيل الآن، وقدميّ متشنجة، لا أستطيع قول أي شيء، ورغم هذا أحارب وأبدأ في إطلاق صرخة غير منقطعة.

تخرج خالتي من المطبخ عندما تسمعني أصرخ، في يمناها سكين، وفي يسراها نصف بصلة.

تركع إلى جواري وقد تكورت في أحد الأركان بينما وقف والدي يرمقني بنظرات تحمل قرف العالم كله.

تلقي خالتي البصل والسكين من يدها وهي تحاول إفاقتي.

لكن نظراتي مثبتة فوق والدي الذي يحاول التظاهر بالاهتمام بي، بأنه لا يعرف ماذا يفعل.

ودون وعي مني أمسك السكين الذي ألقته خالتي أرضًا ثم أوجهه نحو نحري؛ فيرفع والدي الركن الأيمن من شفتيه في شبه ابتسامة غير ملحوظة.

أنظر نحو خالتي التي اعترى وجهها رعب العالم كله، ترتجف شفتاها بصلاة فيها خلاصي.

لكن خلاصي من طفولتي لم يأتني الآن؛ بل كان موجودًا طوال الوقت، موجودًا كل يوم تتصل فيه خالتي بأمي وتخبرها أن ترسلني لها كي تعطيني شيئًا.

لم تكن خالتي تسكن بعيدًا عن المنزل، ورحب أبي بإرسالي دائمًا لأنها تعطيني خزينًا للمنزل؛ سكر أو شاي أو أرز، ببعض الأحيان كانت تعطيني لحومًا ونقودًا!

كنت أجلس مع خالتي ساعة كاملة، أشاهد خلالها أفلام الكارتون، وأشرب القهوة بالحليب، وأحيانًا الكاكاو.. تطعمني الحلوى وكل ما تشتهيه نفسي، في تلك الساعة كنت أنسى أبي والعالم...

لا أدري لماذا لم أفكر بذلك سوى الآن وأنا أرى نظرات الهلع فوق وجهها، إن تلك الساعة كانت خلاصي، وخالتي هي مُخلصتي؛ لهذا وجب عليّ تخليصها هي الأخرى.

أعود لأنظر تجاه والدي، رادة له نصف الابتسامة بابتسامة واسعة، ثم أوجه السكين نحوه وأندفع من مكاني صارخة؛ مما يجعله يهلع ويتراجع للخلف.

أركض خلفه بالسكين فوق السلم وقد اعتراني الجنون تمامًا صارخة: لا تفكر في أن تأتِ إلى هذا المنزل مرة أخرى.

أظل واقفة حتى أتأكد من اختفائه تمامًا، رافعة رأسي متحدية نظرات جيراننا الذين طلوا من أبوابهم يشاهدون الشجار.

أعود إلى الشقة غالقة الباب خلفي بينما أجد خالتي تجلس أرضًا كما هي.

تقول لي دون أن ترفع وجهها: لماذا فعلت ذلك؟.. لماذا؟

أقول لها بعدم تصديق وأنا أمسك بتنورتي: لقد عاد ليصرخ بي! لقد كدت أبلل نفسي!

لا ترفع وجهها وتقول بصوت منكسر: هذا منزلي.

أشعر بغصة في قلبي وأنا أقول لها: حسنًا، وأنا سأتركه لكِ.

أدخل الحمام وآخذ دشًا ساخنًا محاولة ألا أدع المياه تلمس شعري.

أعود إلى حجرتي وأجلس في سريري ممسكة بهاتفي.

أجد رسالة من يوسف على واتساب يخبرني فيها أني كنت في قمة الوقاحة اليوم.

أخبره أن يذهب للجحيم.

أفتح رسائل فيسبوك لأجد رسالة من ابنة عمي تقول فيها "ما ذكرتيه لي مروع حقًا،

لا أظن أن باستطاعتي النجاة في بلد مثل ذلك،

لقد قررت أنا وزوجي الذهاب في رحلة إلى إسبانيا،

كنت أظن أن مصر ستكون مكانًا جيدًا لشهر العسل،

شيء على غرار العودة للأصول،

لكنني أخطأت في هذا فلتذهب الأصول إلى الجحيم".

أحاول العودة في الرسائل وقراءة ما كتبته لها، لماذا تجد ما قلته لها مروعًا! يا لها من طفلة مدللة!

يتملكني النعاس، وعندما أستيقظ أجد أن الساعة ما تزال السادسة صباحًا، أقف أمام المرآة ناظرة نحو الصليب الذي يتوسط خدي الأيمن وأقول: لا يبدو بهذا السوء.

أتناول هاتفي ثم أرسل لفاطمة رسالة على البريد الإلكتروني أخبرها بأني لن أحضر إلى العمل.

أرتدي ثياب العمل المعتادة ثم أذهب إلى المطبخ لأعد كوبا من الشاي بالحليب.

يرن هاتفي المحمول برقم غريب فأجيب لأجدها إنجي!.. هل تستيقظ في هذا الوقت الباكر!

تقول لي: أعتذر على الاتصال في هذا الوقت الباكر، لقد علمت ما حدث البارحة هل أنتِ بخير؟

أتعجب من مكالمتها ومن سؤالها هذا، هل سيرفدونني!

- نعم أنا بخير، شكرًا لسؤالك.

- حسنًا، لقد حدثت العديد من الأشياء في الفترة الماضية، لم أكن متواجدة تمامًا لأعرف كل شيء، لكني علمت أنك تفاجأت بوجود فاطمة، وأن انفجارك هذا كان متوقع الحدوث.

أجيبها بهدوء وأنا أخرج علبة كعك الملاك، وأضع بعض الكعكات في صحن عميق:

في الحقيقة أنا انفجرت بسبب سوزان، إن فاطمة تعاملني بشكل جيد جدًا، حتى وإن لم يخبرني أحد بمجيئها لكنها تحسن معاملتي وتُقدرني، مشكلتي مع سوزان.

- هل تفكرين بالاستقالة؟ أنتِ لن تختفين فجأة أليس كذلك؟

- لا! لماذا أفعل ذلك!

تتنهد براحة قائلة: تعلمين أن فريق عملك يمر بتغييرات كثيرة في الفترة الأخيرة، نحن نحاول بشدة جعل الفريق يتماسك، أنا أعتمد عليك.

أبتسم لكلماتها ثم أسألها: كيف حال والدك؟

- لقد توفي أمس.

أفتح فمي وأغلقه في محاولة مني لقول أي شيء لكني لا أعرف ماذا أقول.

يعود صوتها من جديد: لا عليك، لا أحد يعرف حتى الآن في العمل على كل حال، لقد اتصلوا بي منذ قليل عندما أرسلت رسالة تقولين فيها أنك لن تذهبي إلى العمل، لقد ظنوا أنك ستتركين العمل ليس أكثر. إذا احتجت إجازة فقط أخبريني.

أقول بصوت خافت: أظن أنكِ في حاجة إلى إجازة.

- ليس الآن، لكن شكرًا لك، سوف أتركك تستمتعين بيومك.

- إنجي.. البقاء لله.

- أنيس.. أنا مسيحية!

- ماذا!.. فعلًا!.. حسنًا.. ربنا يعزيكِ!

تضحك ضحكة صغيرة ثم تنهي مكالمتها معي.

أتناول الكوب والطبق وأذهب إلى الصالة حيث تجلس خالتي تشرب قهوتها، أجلس أمامها وأنا أتناول طعامي.

أرمقها بنظرات مختلسة لأجدها قد ارتدت جيبة كحلية وقميصًا أبيضًا، وربطت شعرها بوشاح كحلي صغير.

تنهي فنجان قهوتها ثم أجدها تقف متجهة نحو الباب.

أوقفها قائلة: إلى أين أنتِ ذاهبة؟

تقول باقتضاب: الاجتماع، لماذا أنت مستيقظة في هذا الوقت الباكر؟

أقول وأنا أنهي كوب الشاي: لأني آتية معكِ إلى الاجتماع.

تحاول كبح ابتسامتها متظاهرة بالغضب لكنها لا تستطيع.

تقول مشيرة إلى الصليب فوق وجهي: ألن تضعي لاصقة طبية فوقه؟

أهز كتفيّ قائلة: لا، لست في حاجة إلى ذلك بعد الآن.

أقف إلى جوارها ثم أقبل رأسها، وأضع ذراعي في ذراعها ونخرج متجهتين نحو مصر الجديدة.

***

نعبر من خلال البوابات الكهربائية، كاشفتين عن البطاقات الشخصية، تحيي خالتي عددا من الأشخاص وتعرفهم بي.

يصدر هاتفي رنينًا بوصول رسالة ما على تطبيق "واتساب" فأفتحه لأجد يوسف يرسل عددًا من الرسائل المتتالية يسألني فيها عما إذا كنت سوف آتي غدًا، وإذا ما كنت استقلت، وأين أنا، وهل بإمكانه رؤيتي.

أبتسم للرسائل لكني لا أجيبه.

أتجه مع خالتي نحو السلالم الرئيسية، لكن خالتي تقف للحظات أمام زجاج المكتبة تعدل من وضع وشاحها، وتهندم ملابسها، تشير إلى انعكاسي في الزجاج قائلة: أنيس انظري! لقد اختفى الصليب!.. إنها بركة ربنا.

أقول ساخرة: ألم يكن ظهوره بركة ربنا أيضًا!

تنظر لي بغيظ ثم تتركني وتتابع سيرها نحو مدخل الكنيسة.

أراقب انعكاسي في الواجهة الزجاجية لأجد بشرتي صافية، وأن رقعتي الخضراء المائلة للزرقة قد اختفت تمامًا وكأنها لم تكن! لماذا أبدو أجمل من ذي قبل؟

ألتفت نحو خالتي التي تتابع سيرها، بينما أظل في مكاني أراقب الكنيسة تحتل الأفق، ومن خلفها تظهر سماء الله زرقاء صافية.

زرقاء صافية كلون مثالي للوقوع في حب كل شيء من جديد.. للغرق.. للإيمان بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

بأني سأكون على ما يرام.

للتواصل مع الكاتبة:

Email: Doha1Salah@gmail.com

Twitter: @Doha1Salah

Facebook: https://www.facebook.com/Doha1Salah/

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007